رواية

حسن الحلبي

زوجة تختلف

دار الشروق

رواية

حسن الحلبي

زوجة تختلف

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١٠/٣٦٠٩)

٨١٣٫٩

الحلبي ، حسن
زوجة تختلف/ حسن علي حسن الحلبي . عمّان دار أزمنة ، ٢٠٠٨ .
(٩٦) ص.
ر.إ.. ٢٠٠٨/١٠/٣٦٠٩
الواصفات: /الروايات العربية/ /العصر الحديث/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-09-362 -4 (ردمك)

زوجة تختلف: حسن علي الحلبي
الطبعة الأولى . 2009
© جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤
E.Mail:info@azminah.com
Website:http://www.azminah.com

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة)

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)
لوحة الغلاف: همّام الرعود (الأردن)
فرز وسحب الأفلام: زمرّد
الترتيب والإخراج الداخلي: أزمنة (إحسان الناطور، نسرين العجو)
الطباعة: جمعية عمال المطابع التعاونية / عمّان
تاريخ الصدور: كانون الثاني / يناير 2009

زوجة تختلف

مقدّمة

إنّها ضروريّة لأن الجميع يفعلون هذا !

في البداية أحبّ أن أقول أنّي كاتب قصص قصيرة وقد فزت أكثر من مرّة على مستوى المملكة والمحافظة .. كما أنّي شاعر ولي الكثير من القصائد وشاركت بأكثر من أمسية شعريّة .. كما أنّي أكتب زاوية أسبوعية اسمها (يوميات رجل مقهور) في ملحق (شباب) بصحيفة الدستور ..

هذه هي التجربة الثانية لي في كتابة الرواية .. التجربة الأولى كانت مع رواية اسمها (جزيرة الأهوال) قبل أربعة أعوام وقد فزت فيها بالمركز الأوّل على المملكة ـ ولم تُنشر ـ !.

لست من هواة كتابة الرواية مَع كوني من عشّاق قراءتها .. لكن الّذي حدث أنّ هذه الرّواية تستند إلى قصّة حقيقيّة !

ربّما يحبّها بعضكم وربّما يكرهها البعض الآخر .. البعض سيتحمّس لها ويخبر عنها كلّ أصدقائه ، والبعض الآخر (قد) يلقيها فوق مكتبه للأبد ! لا أعرف ردّة الفعل الّتي ستصيب الجميع ، لكنّي واثق أنّها ـ في أغلب الحالات ـ لن تكون سيّئة ..

اقرؤوها وأعطوني رأيكم .. ومعرفة رأيكم سيكون أنني سألمح تلك الابتسامة الموحية بالرضا بعد القراءة .. عند رؤيتي إياها على وجه أحدكم ستغمرني السعادة العارمة .. فمعناها أنّي نجحت وكنت جيّداً فيما كتبت !

إهداء حتمي!

أهدي هذه الرّواية إلى والدي .. إنه فارس حقيقي ، ولو عشت ألف عام لن أبلغ شيئاً من علمه !

وإلى أمّي .. الفارسة الّتي تعمل من أجلي ومن خلف الكواليس، والّتي أصرّت على عدم قراءة أيّ شيء لي ما لم يكن بين مصراعي كتاب مطبوع !

أهدي هذه الرّواية إلى الدّكتور (أحمد خالد توفيق) .. الّذي لم يرني، ولعلّه لم يسمع بي مطلقاً ، لكنّني أعتبره أستاذي الروحي (البلوتوثي) = (اللاّسلكي) ..

أهديها إلى من أدخلني عالم الكتابة : (د. نبيل فاروق) . .

أهديها إلى أستاذتي في الجامعة : الدّكتورة (دانية المريان) . .

أهديها إلى فتاة أحلامي الحقيقية التي لم أقابلها بعد !

وإلى كلّ أعضاء منتدى (الثعالب) على شبكة الإنترنت . .

وأهديها لك أيضاً أيّها القارئ العزيز . .

. . ولكلّ من قرأها وسيقرأها !

حسن

الفصل الأول

اسمه (نزار شاهين) ..

ربّما رأيت مثله ذات يوم أو صافحته .. ربّما قرأت في ملامح وجهه عدّة أمور تعلمْتَها من أحد الكتّب الرّخيصة في تعليم الفِراسة .. ربّما شاهدته وظننت أنّه كأيّ شخص عادي ..

ملامحه مألوفة .. قد تراها في وجه سائق حافلتك أو ابنِ الجيران .. قد تراها في وجهِ سائق سيّارة أجرة أو أستاذ مدرسة ..

شعر أسود ناعم وعيون خضراء كعيون نمور (آسيا) .. وجه رفيع وجسد طويل نحيل .. وابتسامته هي واحدة من تلك الابتِسامات الموحية بِالثّقة ..

ربّما كان هذا سرّ نجاحه أيضاً في عمليّات النّصب والاحتِيال الكثيرة الّتي كان يقوم بِها ـ قديماً ـ !

قال عُلماء الاجتماع ـ فيما معناه ـ قديماً أيضاً ـ: أنّ المحتالين لم ينجحوا في خداع النّاس إلاّ لأنّهم يكسبون ثقتهم أكثر من اللاّزم ..

هذا ما يجيده (نزار) فعلاً ، ومن أوّل جلسة يجلِسها مع أيّ شخص كان .. قدرته الحواريّة ومهارته في إدارة دفّة الحوار ناحيته ؛ من الأمور الّتي

أعتبرها إيجابية حقّاً في شخصيّته القويّة ..

كم عمره ؟!

دون شهقات طفوليّة من أحدكم أستطيع أن أقول أنّه تجاوز الخامسة والأربعين منذ فترة قريبة !

(نزار) رجل محنّك وقد مرّ بالكثير في حياته ، وعاش ما لم نفكّر أن نعيش ربعه ..

في بداية حياته عاش مستقيماً متديّناً قبل أن يتعرّف على رفاق سوء .. إنّهم ليسوا كأيّ رفاق سوء قابلتَهم في حياتك .. لا تكابر صدّقني ! الرّجل دخل عالم الاحتيال والأسماء والجوازات المزوّرة والنّصب العبقري .. هو ذكي من الأصل وكان شهيراً بعمل المقالب و (الأفلام) بأصدقائه منذ طفولته.. تخيّل حاله معي إذن عند دخوله هذا العالم ، المُعتمِد على الحنكة والذّكاء والخُبث والدّهاء !

تزوّج امرأة وأنجب منها ولدين وثلاث بنات .. زوجته جيّدة لكنّه بدأ يملّ منها بعد أن بدأت تزداد سُمنة .. بدأت تتعب كثيراً .. بدأت تقصّر في حقوقه وفي حقوق البيت والأولاد ..

إنّها تنام فوق الحدّ المعقول .. نعم ؛ هو حالته الماديّة مرُهقة لكنّ هذا لم يثبط همّته .. إنّه يعمل ويعمل قدر استطاعته .. لا يريد منها شيئاً لا هي ولا أولادها .. يريد فقط أن يقفوا معه نفسيّاً .. ظلمةُ السّجون تركت آثاراً عميقةً لم يطمسها قلم الدّهر من نفسيّته بعد !

أتسأل عن السّجون ؟!

هل سُجِن (نزار) ؟!

طبعاً يا رجُل ! رغم ذكائه ودهائه الّذي كانَ يُضرب مثلاً أحياناً إلاّ أنّه قُبض عليه في كثير من المرّات .. لقد سُجن أحد عشر عاماً في حياته بأوقات متفرّقة ! بعضها كان يقضيه في زنزانة عاديّة وبعضها كان يمضيه في الحبس الانفراديّ ..

صعبة حياة السّجون !

صدّقوني صعبة جدًّا وخصوصاً إذا كان السّجين شهيراً وأثار جنون رجال الشّرطة كثيراً ..

صعبة إذا كان السّجين مطلوباً للشّرطة الدّولية ـ الإنتربول ـ وهارباً من أكثر من دولة .. صعبة إذا كان هناك أعداء ومتربّصون حتّى داخل السّجن ! صعبة إذا كان هذا السّجين .. (نزار شاهين) !

* * *

حسناً ..

دعونا ننسى الآن كلّ هذا ، ولنبدأ القصة الحقيقيّة ..

القصة تبدأ في تشخيص حالة (نزار) ..

(نزار) محطّم نفسيّاً الآن .. إنّه يعاني وضعاً عصيباً لا يعلمه إلاّ الله .. بطاقته الشّخصيّة ليست معه .. رخصة قيادته ليست معه .. وجواز سفره أيضاً ! كلّ هذه الأوراق محجوزة عند الشرطة حتّى يدفع المبالغ المترتّبة عليه..

(نزار) الآن في مرحلة صعبة كما ترون .. إنّه لا يستطيع أن يعمل .. لا يستطيع أن يصرف على أولاده .. الوضع لا يُحتمل أبداً ..

ماذا يفعل ؟!

* * *

جاء ذلك اليوم الّذي اتّجه فيه إلى بيت شقيقته الكبيرة (أم أسامة) .. إنّها امرأة صالحة وحالتها مستورة مع زوجها ..

رحّبت به كعادتها ، وكانت هُناك عبارات المجاملة المعتادة قبل أن يبدأ معها في حديثه الّذي جاء عندها لأجله ..

ـ عزيزتي أريد أن أقترح عليك اقتراحاً !

ـ ماذا هناك ؟!

ـ بصراحة أريد أن أسلّم نفسي للشّرطة !

تراجعت في مقعدها مندهشة .. ماذا يقول هذا المخبول ؟!

ـ ماذا تقول أيّها المخبول ؟!

بكلّ بساطة كان الجواب وهو يقلب كفّيه :

ـ كما سمعتِ ! أريد أن أسلّم نفسي للشرطة حتى يسجنوني ! لأنّه عندما أسجن ستقوم الوزارة بدفع مرتّب شهري لزوجتي حتى تستطيع أن تنفق عليهم ، فأنا لا أستطيع هذا الآن !

ـ سامحك الله يا (نزار) ! ما هذا الكلام الذي تقوله ؟! أنا لست امرأة متديّنة جدًّا ، ولستُ داعية للإسلام والتقوى ، لكن هناك جملة أعرفها منذ طفولتي : وهي ألاّ تقنط من رحمة الله .. أنت رجل جيد لكنّك تقول هذا الكلام لأنّك لا تصلّي ولا تفعل الخير .. أنت لا تدري ماذا سيغيّر الله من أمور في المستقبل القريب .. انس هذه الفكرة الغبيّة وابق عندي !

قال في هلع :

ـ ومن سينفق على الأولاد ؟!

ابتسمت وقالت :

ـ لا تقلق ! أنا من سأنفق عليهم إلى أن يفرجها الله عليك ! ربّما نبيع أرضاً لنا أو ينجح (أسامة) بواحدة من صفقات الألبسة التي يعمل بها ! من الممكن أن يحدُث أيّ شيء !

صمت قليلاً ، ثمّ قال :

ـ ولكن هذا غير منطقي أبداً ! هل سأبقى نائماً عندك في البيت دون عمل وأنت تنفقين على أولادي ؟!

ربّتت على كتفه لتطمئنه قائلة :

ـ أخبرتك ألاّ تقلق ! يا إلهي من هذا الرأس الحديدي ! المهمّ أن تبقى عندي ، وألاّ تفكّر بأن تذهب للسجن حتى يجد أولادك ما سيأكلون ! الله هو الرزّاق !

حاول (نزار) أن يُقنع نفسه بالفكرة ـ عمليّاً ـ !

وفعلاً .. مرّ أسبوع كامل عليه وهو في بيتها .. يأكل ويشرب وينام والحياة كأنها العسل .. من حسن حظها أنّ زوجها في (أمريكا) وإلاّ لألقاه خارجاً! أمّا أولاده فقد كانت أمورهم تسير بشكل جيّد جدًّا ..

.. وجزاكِ الله خيراً يا (أمّ أسامة) !

* * *

خلال هذه الفترة كانت (أمّ أسامة) لا تنفكّ تخبره عن الدّين .. وعن الجنّة والنّار والعذاب ، والثّواب والعقاب ..

إلى أن جاءت ليلة ..

كان جالساً في الشرفة والساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما مرّت أحداث حياته أمام وجهه كشريط سينمائيّ سريع ..

ـ يا ولد ! سُجنتُ أحد عشر عاماً ! ذهبتُ وأتيتُ وسافرتُ ، وقاموا بمطاردتي ومررتُ بالكثير من الأمور ! أمسكتُ عشرات الألوف من الدّنانير بين يديّ ولم أترك مرقصاً ولا ملهىً ولا ناديا إلاّ دخلتُه ! لم أترُك منكراً إلاّ فعلتُه ! ماذا استفدتُ لغاية الآن ؟!

قالها في نفسه ، وضحك في سخرية ..

ضحك على نفسه !

ـ حقّاً ليس هناك فائدة ! وما عند ربي خير وأبقى !

هنا بدأ تحول جذري جديد في حياته ..

وجد نفسه فجأة قد رجع إلى الله .. وجد أنّه قد نوى أنّه حتّى لو سُجِن.. حتّى لو حدث ما حدث ؛ سيصلّي ويمشي في طريق الخير من اليوم فصاعداً!

وفعلاً .. وبكلّ إخلاص ووفاء بدأ يصلّي .. بدأ (نزار) يفعل الخير .. بدأ بقراءة الكتب الدينيّة ..

(أم أسامة) غمرتها سعادة عارمة بسبب حاله الجديد ، وهنأته من أعمق أعماق قلبها ..

عندما هنأته قال لها بلهجة حازمة :

ـ سأقول لك شيئاً : عندما طلبتِ منّي أن أصلّي لم أصلّ وقتها ، أتعرفين لماذا ؟!

ـ لماذا ؟!

برقت عيناه ـ قائلاً بطريقة مضحكة وكأنّه سيقول شيئاً عبقريّاً خارقاً للعادة ـ :

ـ حتّى لا تأتيكم لحظة شيطانيّة تقولون فيها : إنّه صلّى حتّى يُرينا أنّه صار يصلّي وحتّى نصبح جيّدين في التّعامل معه .. كلاّ .. قلتم لي كثيراً أن أصلّي ولم أصلّ حتّى لا يكون فعلي فيه نفاق .. من أجلكم أو من أجل أن تقولوا أنّ (نزار) أصبح جيّداً .. أنا فعلت هذا عن قناعة حتّى أشعر حقّاً بحاجتي لله وبلجوئي له بعد توبتي ..

ـ ثمّ ؟!

ـ ثمّ ماذا ؟! لم أعد أشعر بالخوف ! كنت في البداية أخاف أن أخرج إلى الشارع ! كنت أخاف أن تمسكني الشرطة ! الآن تبخّر كلّ هذا ! سأصلّي وأتوكّل على الله ! سأعمل وأبيع وأذهب وأروح وآتي والباقي على ربّ العالمين ! إنّه مطّلع على حالي ولا أريد منه إلاّ أن يستر عليّ !

***

هنا تذكّر (نزار) شيئاً لم يدرِ كيف غاب عن بالِه ..

تذكّر (نديم) ..

(نديم) هو الشقيق الثالث لـ (نزار) وهو أصغر منه بالطبع .. عمره

ثلاثة وثلاثون عاماً لكنّه فنّان قدير .. بدأ حياته بالعمل بأكثر من متجر للمجوهرات إلى أن عرف صاحب المتجر أنّه رسّام ماهر ..

هنا قام بإرساله إلى مجمع تجاري كبير وبدأ يرسم صوراً للنّاس مقابل نظير ماديّ بسيط .. بقي على هذا الحال دهراً إلى أن سئم .. ما عيب التجديد ؟! لم لا يقوم بكسر هذا الروتين المملّ في حياته ؟!

أصلاً وُجِدَ الرّوتين حتى يتمّ كسره !

بدأ (نديم) يطوّر نفسه .. تعرّف على تجار للقماش .. وعلى تجار للقشّ .. وعلى تجار للأشياء الملوّنة و (الخرز) وما شابه .. وتعرّف على منجرة وتاجر أخشاب .. وبدأ يصنع بيوتاً للهواتف المحمولة ، وبيوتاً لعلب المناديل الورقيّة ، وسلالاً جميلة للقمامة ، ولوحات للحائط ، والكثير من الأشغال اليدويّة الّتي أصبح يتقنها بحقّ ..

تذكّر (نزار) كلّ هذا بلمح البصر عندما جاء (نديم) في زيارة لشقيقتهما (أم أسامة) ..

أخبرهما (نديم) أنّه استأجر شقّة أرضيّة صغيرة مكوّنة من غرفة واحدة وحمّام ومطبخ ، يريدها أن تكون له مشغلاً يعمل فيه وينتج منه كلّ ما يصنع.. بدلاً من احتلال آلات العمل غرفته الصّغيرة في منـزل والديه الصغير كذلك!

بدا الأمر لـ (نزار) مثيراً .. لم يجلس عالةً على شقيقته في المنـزل ؟! لم لا يذهب مع شقيقه ويعملا سويّاً ؟! كثرة الأيدي خير من يد واحدة ! كما أنّه هكذا سيستفيد كلّ طرف من الآخر .. وسيبيعان جيّداً وتتحسّن أحوالهما! كما أنّه سيكون مكاناً مناسباً للاختباء من الشّرطة .. لن يكون هناك من يعرف أين هو !

هُنا ظهر عائق آخر !

أين رأس المال ؟!

كالعادة ؛ تمّ البحث عن مصدر مموّل قد يقتنع بفكرة مشغل كهذا .. وتمّ إيجاده ..

المصدر هو (هنادي) .. و (هنادي) هي صديقة أمّ (أسامة) وحالتها الماديّة جيّدة جداً و (فوق الريح) كما يُقال !

ـ (هنادي) ! نحتاج مائتي دينار حتّى نبدأ بعملنا !

ـ وأنا جاهزة يا (نزار) !

تمّ الاتّفاق بينهم ووعدها كلّ من (نزار) و (نديم) بسدّ دينهم فور أن يعمل المشغل ..

وبدأ العمل ..

كان (نديم) هو الّذي يقوم بصنع المشغولات اليدويّة ودهنها وهكذا ، بينما يقوم (نزار) بالخروج منذ الصّباح ومعه بعض العيّنات بأكياس في يديه الاثنتين .. هناك ما لا يقلّ عن الثلاثين كيلوغراماً في الأكياس ! تخيّل أنّه كان يدور على المتاجر أربع أو خمس ساعات في النّهار حاملاً هذا الوزن !

المشكلة أنّ هذا كان في فصل الشتاء ولم يكن يهتمّ .. سواء كان هناك أمطار أو ثلوج .. سواء كان الجوّ غائماً أم معتماً .. لم يكن يهتمّ أو يبالي أبداً ..

المشكلة الأكبر أنّه كان يذهب ويأتي عن طريق حافلات النّقل العام ! لم تكُن عنده سيّارة توصله إلى وجهته الّتي يريد ! هذا كان حلماً صعب المنال جداً !

ولم يكن يهتمّ .. كان يصلّي ويتوكّل على الله ..

(نديم) كان يتعب ويرجع إلى المنزل .. أمّا (نزار) فلا ! كان ينام في المشغل! ينام عند القمامة وعند نجارة الخشب .. كانت ظروفاً صعبة جداً ! لا يوجد دفء .. لا يوجد نار .. الطعام شطائر ولا شيء غير الشطائر !

حياة قاسية .. وكان يتحمّلها !

أربعة أشهر كاملة مرّت عليه وهو هكذا !

في هذه الفترة كان (نزار) يسوّق بضائعه كالعادة بنفس الطريقة المرهقة إيّاها .. (نديم) من ذلك الطّراز الّذي يسأم من العمل بسرعة .. ورغم أنّه أصغر من (نزار) إلاّ أنّه علّمه كيفيّة صنع بعض السلال والمشغولات القماشية اليدويّة ..

هُنا وفجأة ؛ فعل (نديم) آخر ما يمكن تصوّره ..

ترك (نزار) !

تركه وسط العمل ووسط القماش ووسط الأخشاب وانطلق يبحث عن زوجة ليكمل نصف دينه حسب قوله .. هل هذا وقته يا (نديم) ؟! ولم يكن (نديم) يجيب أو يستجيب !

تركه وذهب .. تركه في نصف الطّريق وعليه إيجار شهري لا بدّ من دفعه لصاحب الشقّة ! وعليه سوق يريد أن يصنع له الكثير !

أمّا (نزار) فكان قد تعلّم من (نديم) صنع بعض الأشياء لحسن الحظّ .. لذا برزت هنا الصعوبة الحقيقيّة ؛ سيكون عليه أن يصنع .. ثمّ أن يبيع ! وأن يسوّق ! وأن يعرف ماذا يريد أصحاب المتاجر من طلبات ! وأن يرسلها لهم في الوقت المطلوب !

المشكلة الأخرى أنّ رأس المال ذهب ! أخذ (نديم) الآلات الّتي يتمّ بها العمل والقصّ والإلصاق وما شابه ، ولم يترك لـ (نزار) إلاّ القليل ..

تخيّل معي (نزاراً) بعد هذه الحالة لمدّة ستّة شهور !

ستّة شهور كاملة وهو يسهر لوحده .. يعمل ويعمل ويعمل حتّى صلاة الفجر دون كلل ولا ملل .. ثمّ يصلّي وينام .. بعد أن يدعو الله أن يسدّد دينه الذي عليه في المحكمة ، حتى يستطيع بعدها أن يظهر بين النّاس بصورة طبيعيّة ، معه رخصة قيادته وبطاقته الشخصيّة وجواز سفره ، حتّى يستطيع أن يعمل وأن يؤمّن النقود الكافية لإطعام نفسه وعائلته .. المهمّ أن ينتهي من الشّرطة والقضايا الّتي عليه في المحاكم !

وكان يدعو بشدّة ..

وكان يبكي أثناء الدعاء بصدق ..

وكان يتوضّأ أحياناً بماء كأنه الثّلج ..

ولم يكن يهتمّ ..

حقّاً لَم يكن يهتمّ ..

كان يريد أن يصلّي ..

.. كان يريد أن يصلّي ، ويتقرّب إلى ربّه فحسب !

* * *

ذات ليلة رأى مناماً ..

كان هذا هو الحُلْم الوحيد الّذي استطاع (نزار) أن يتذكّره في حياته !

رأى فيما يرى النّائم أنّه ممدّد على سرير طويل .. ومكانُ السّرير في مشغله.. فجأة دخلت فراشة كبيرة من النافذة ووقفت فوق رأسه .. الغريب أنّ الفراشة كانت بأرجل آدميّة ! نظر لها وقال :

ـ يا إلهي ! إنّها رزق من الله !

قالها ومدّ يديه نحو رجليها وأمسك بهما .. هنا انقلبت الصّورة بطريقة عجيبة إلى أنّه يجلس فوق السّرير ، وهناك فتاة صغيرة تجلس في حضنه وتضحك ، وترتدي النقاب !

وانتهى الحلم ..

استيقظ بعده منتفضاً .. أخذ يتذكّره ويعيده في رأسه كثيراً .. لقد استغرب منه واستغرب كيف استطاع أن يتذكّره .. إنّها أوّل مرّة !

في الصّباح اتّصل مع شيخ وسأله عن الحلم ، كما قرأ قليلاً في كتاب شهير لتفسير الأحلام بين النّاس ؛ وجاء تفسير الحلم من المصدرين أنّه رزق سيسوقه الله إليه !

متى وأين وكيف ؟!

الله أعلم ! لكنّ الأغلب أنّها رؤيا لأنّها جاءت بعد صلاة الفجر .. ولأنّها جاءت بعد معاناة وصبر وتعب ..

بعد هذا بدأ (نزار) يطوّر عمله ، ويتفنّن في تجارته ..

بدأ يصنع من رأسه الكثير من المشغولات .. صار يذهب إلى المجمّعات التجاريّة الضّخمة ويذهب إلى متاجر التّحف فيها .. بدأ يرى أفكاراً تعجبه.. بدأ يأخذ بعض ما يرى ويعدّل عليها .. والحقّ أنّه كان ينجح .. ورغم أنّه

كان يصنع إلاّ أنّه كان يذهب ومعه أكياس كبيرة فيها الكثير من العيّنات .. ويأخذ الكثير من الطّلبات ويعود بها إلى المتاجر !

ازداد يقينه بالله ..

ازداد إيمانه بأنّ الله معه ، وقد قبل توبته .. خصوصاً عندما حدثت معه تلك القصّة الغريبة ..

كان متّجهاً للسّوق معه حقيبته المتضمّنة عينات خشبيّة وقماشية عندما اتّصل به شقيقه (نديم) فجأة ..

ـ أين أنت يا (نزار) ؟!

ـ متّجه إلى السّوق !

ـ تعال إليّ ! أنا في (وسط البلد) وأريد أن أشتري هاتفاً محمولاً جديداً غير هذه الخردة الّتي أكلّمك منها ! هل تستطيع أن تأتي إلي ؟!

فكّر (نزار) قليلاً ثمّ حسم أمره :

ـ هممممم ! حسناً .. أنا قادم !

طبعاً كان في نزوله لهذه المنطقة خطرٌ داهم .. ليس معه ما يثبت شخصيّته.. لو أنّ شرطيّاً أوقفه فسيذهب للسّجن فوراً .. لكنّه كان متوكّلاً على الله ..

نزل إلى (وسط البلد) .. اتّجه إلى (نديم) وبدأ الاثنان يمشيان ويجرّبان بعض الهواتف في المتاجر .. إلى أن وصلا إلى(بسطة) يقف عليها رجل يكاد لونه يصبِـــح كالنفط من القذارة ، وهناك أثر لضربة سكّين عميقة في وجهه!

بدأ (نديم) يفحص هاتفاً أعجبه وأخذ يقلّبه في يديه نصف ساعة ، قبل أن يشكر صاحب (البسطة) في النهاية دون أن يشتريه !

هنا صرخ الرجل :

ـ منذ نصف ساعة أو أكثر وأنت تفحص بالهاتف حتى تقول لي في النهاية أنّك لا تريده ؟!

ـ نعم فجهازك لم يعجبني !

ـ إنّه أنظف قطعة عندي ! كيف لم يعجبك ؟!

هنا رفع (نديم) حاجباً وقال للرجل في تحدّ :

ـ إنّه لم يعجبني ولن أشتريه فماذا ستفعل ؟!

قالها وبدأ الاثنان يتشاجران بالكلمات .. خلال هذا الوقت كان (نزار) يهدئهما بأقصى ما يستطيع .. إنّه لا يريد أن يتطوّر الأمر وتصل الشرطة وتقبض عليهما وعليه بالمعيّة ! لكن فجأة فقد (نديم) أعصابه وهوى على وجه الرّجل بلكمة مباغتة !

فات على السيد (نديم) أن ينتبه أنّ بيده مفاتيحه .. وأن مفتاحاً غليظاً كان يبرز من بين أصابعه ، لذا ما أن هوى باللكمة التي يبرز رأس المفتاح منها على وجه الرّجل حتّى شقّت تلك المنطقة أسفل عينه مباشرة وتفجّرت منها الدّماء !

رأى (نزار) هذا المشهد فهوى قلبه بين قدميه ..

سيمسكوننا !

وقع الرجل أرضاً يصرخ .. الدماء تسيل من عينه .. ليتفاجأ الشّقيقان أنّ المنطقة كلّها مكوّنة من أقارب وأصدقاء هذا الرجل الّذي ينـزف على الأرض الآن !

ويا سلام !

تخيّل عشرين رجلاً يهجمون عليك أنت وشقيقك في آن واحد ! ماذا ستكون ردّة فعلك ؟! بالنسبة لي ستكون روحي قد فرّت وهربت من جسدي بسبب الذعر ! ولن يروا أمامهم إلاّ جثّة هامدة !

بالنسبة لـ (نزار) و (نديم) فقد كان الأمر مختلفاً .. كان الواحد منهم يأكل ضربة فيردّها اثنتين .. من حسن الحظّ أنّهما عاشا طفولة قاسية جعلت الضّرب عندهما كأنّه قبلة المساء ! لهذا كان يتمّ لكمهما وركلهما وضربهما دون أن يشعرا إلاّ بربع الألم الحقيقي !

دماء وتراب على الشقيقين .. وقفز واحد من الرجال على(نزار) ودفعه دفعة قويّة على الأرض .. وقع وتمرّغ في الماء والطّين ليهجم عليه خمسة أشخاص مرّة واحدة !

الجميل في الموضوع أنّه لم يكن يشعُر بأيّ ألم ! انهالوا عليه ضرباً من اليمين واليسار كما انهال آخرون على (نديم) ولم يكونا يشعران بالألم !

تعرفون ذلك الشعور أثناء المشاجرات عندما تكون عروقك على وشك الانفجار .. أنت لا تشعر بأيّ شيء لأنّه ـ أصلاً ـ ليس هناك فكرة في رأسك إلاّ أنّك تريد أن تحطّم وأن تدمّر وأن تفجّر !

هنا ارتفع صوت صافرات الشّرطة ..

فجاؤوا ، وأمسكوا (نديم) ومن كان معه وجاؤوا إلى (نزار) على الفور.. أحاطوا به وأمسكوه بقسوة .. نظر إلى شقيقه فوجده في حالة يرثى لها .. شعره ممتلئ بالماء والطين وملابسه تَمَزَّق بعضُها وهناك خيط من الدماء يسيل من أنفه وفمه .. من نظرته إلى (نديم) عرف أنّه هو أيضاً يعاني من نفس الحالة !

ركبوا جميعاً سيّارة الشرطة .. في الطريق كان (نزار) يدعو !

نعم ! شكله غريب وحالته شبه معدمة ! حقائب البضاعة والعيّنات التي كانت معه لا يدري أين ذهبت أو أيّ ابن حرام أخذها ! رغم هذا أخذ يدعو أن ينقذهما الله من هذا الموقف .. لقد تورّطا فعلاً ! عين الرجل أصبحت مفتوحة وسالت منها الدماء وقد وقع شجار كبير في المكان !

أنقذني يا ألله ! عليّ الكثير من القضايا في المحكمة ولسوف يقبضون عليّ بمجرّد معرفتهم اسمي !

ثمّ وصلوا مركز الشرطة ..

أولاد أعمام الرّجل كانوا هناك جميعاً .. كلّ أقاربه .. تعرفون أولئك النّاس الّذين لا يعرفون صلة الرّحم إلاّ في المشاجرات .. كانوا حوله يوسوسون له ويعبّئون برأسه ..

ـ سنأخذ حقّك منهم !

ـ سندخلهم السّجن ونجعلهم يدفعون ما فوقهم وما تحتهم !

ـ سنذبح ونسلخ !

.. إلى آخر هذا الهراء الّذي لا ينتهي !

الرّجل المضروب في عينه كان يعيش وضعاً مأساويّاً .. إنّه لا يرى في عينه! هناك منديل كبير فوقها وقد امتلأ بالدمّ .. رغم هذا كلّه كان يهدّد ويتوعّد ويصيح !

ـ أين بطاقاتكم الشخصيّة ؟!

قالها الضّابط المسؤول لهم ومدّ يده ..

هنا برق جواب سريع في ذهن (نزار) وسط هذه الفوضى وبعد هذا السؤال ..

لا تنسوا أنّ (نزار) بالأصل ليس معه أيّ أوراق ثبوتيّة بسبب القضايا الّتي عليه في المحاكم .. الأمر الذي برق في ذهنه أنّه رسم تعبيراً يوحي بالذعر على وجهه .. ومدّ يده إلى جيب بنطاله الخلفيّ وعبث فيه .. ثمّ أطلق تنهيدة عميقة وقال :

ـ ضاعت محفظتي أثناء المشاجرة ! يا إلهي ! ماذا سأفعل الآن ؟! فيها نقودي وأوراقي الرسميّة كلّها !

ـ وما اسمك إذن ؟!

لا يدري كيف خرج من فمه الاسم :

ـ (غسّان شاهين) !

كانت هذه خطوة عبقريّة بحقّ ..

(غسّان) هو الشّقيق الأكبر لـ (نزار) .. وهو رجل ليس له أيّ سجلاّت أمنيّة عند الشّرطة .. كان من السّهل على (نزار) أن ينتحل شخصيّة شقيقه

في هذه اللّحظة لأنّ التحقّق من صحّة هذا الأمر صعب للغاية .. إلاّ لو تمّت مقارنة البصمات .. وأمر البصمات في المشاجرات يتمّ استبعاده عادة !

تمّ التّدقيق على الاسم في سجلاّت كمبيوتر الشّرطة ووجدوا أنّه ليس عليه أيّ قضايا جنائيّة .. وكذلك (نديم) ..

الرّجل ما زال يتوعّد .. أقاربه ما زالوا يهدّدون .. عينه ما زالت تنزف ! والبضاعة ذهبت بدون رجعة !

فجأة قال الضّابط :

ـ خذ إفادة هذين الأخوين واذهب بهما إلى السّجن ! وهذا الرجل انقلوه إلى المستشفى كي يحضر لنا تقريراً طبيّاً بما حدث !

فجأة ..

قفز الرّجل من مقعده وقال آخر شيء يتوقّعه الجميع ..

تفاجأ الكلّ ..

ـ سيّدي أنا أسحب الشّكوى ! ولقد سامحت الجماعة !

نظر إليه الجميع في استغراب وذهول :

ثمّ قال الضّابط مندهشاً !

ـ ماذا تقول ؟! أتيت عندي بسيارة شرطة وهناك ضربة في عينك ، وأحضرت معك كلّ أقاربك ، لتقول لي بعد هذا أنّك تريد سحب الشكوي؟! هل تظنّ أنّ الأمر يخصّك وحدك ؟!

ـ سيّدي أنا سحبتها ! لقد سامحتهم حتّى بضربة عيني !

كان شيئاً غريباً ومذهلاً ..

قام عليه أقاربه :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟!

ـ لا بدّ أنّك جننت !

ـ لقد ذهبت عينك ومع هذا تسامحهم ؟!

ـ وكان جوابه بارداً :

ـ انتهى ! لقد سحبت الشّكوى كما قلت للضابط !

تدخّل الضّابط وقال :

ـ أنا لا أتحمّل هذه المسؤوليّة !

قال الرّجل :

ـ أنا سأتحمّلها إذن ! أعطني ورقةً وقلماً ! سأكتب أنّي متحمّل للمسؤوليّة وأنّي سامحتهم .. وأنّي سحبت الشّكوى وأتحمّل مسؤوليّة نفسي !

كتب الورقة وأعطاها للضّابط الّذي وضع الورقة في درج مكتبه ثمّ قال:

ـ هيّا ! مع السّلامة !

كان (نزار) و (نديم) يشاهدان هذا كلّه ولا يكادان يصدّقان ..

الرّجل أنهى الموضوع والشرطة تقبّلت الأمر ببساطة ؟!

يا للغرابة !

هُنا قفز (نزار) و (نديم) يوسعان الرّجل تقبيلاً ، وأخذا يعانقانه ، ويشكرانه بكلام كثير جدًّا ..

بعد هذا خرج الجميع من المركز والشقيقان يشعران كأنّهما في فيلم هندي!

هنا جاءه شاب ملتحٍ حاملاً حقائب البضاعة والعيّنات الّتي كان يمسكها قبل المشاجرة ..

ـ تفضل خذ حقائبك الّتي سقطت منك أمام باب متجري أثناء المشاجرة!

كان شيئاً رائعاً ..

لقد خرج من قضيّة المشاجرة كالشّعرة من العجين .. والأجمل من هذا أنّ حقائب البضاعة قد رجعت له ..

ذهب وسلّمها للرّجل الّذي كان مفترضاً أن يعطيها له منذ ساعتين .. وأخبره بالقصّة وهو يضحك ملء فمه !

***

بعد هذا مرّ يومان ..

عندها حدث ما لم يكن في الحسبان ..

فقد قابلها ..

.. قابل (منيرة) !

الفصل الثاني

كعادته كان (نزار شاهين) يمارس عمله ..

يخرج من المشغل بعد صلاة الظّهر بقليل ، حاملاً الحقائب الّتي فيها آخر ما صنع من مشغولات يدويّة خشبيّة وقماشيّة ، ليعرضها على بعض المتاجر الكبيرة الفخمة الّتي يتعامل معها .. أو على متاجر جديدة لم يزرها من قبل..

فجأة دخل تلك المنطقة وهو يمشي ..

رأى من بعيد تلك المكتبة .. مكتبة صغيرة لبيع القرطاسية والأدوات المكتبيّة وبعض الألعاب وما أشبه ..

اتّجه إليها ودخلها ..

ـ السلام عليكم !

ـ وعليكم السلام !

ارتطمت عيناه بذلك الرّجل الّذي يجلس أمام المكتب .. رجل كبير في السنّ وقد غزتَ التّجاعيد وجهه .. وخلف المكتب تجلس تلك السيّدة ..

الاثنان أجابا السّلام ..

يبدو أنّها المسؤولة عن المكتبة ها هنا .. كانت تلبس جلباباً ساتراً أزرق اللّون ، وتحيط وجهها بإيشارب أبيض ، وكانت بقربها طفلة صغيرة تلوّن بمجموعة من ألوان الخشب كتاباً كُتب عليه : (ارسم ولوّن) ..

بيضاء .. نظرتها قياديّة .. وجهها بشوش بسيط وملامحها عاديّة .. جثّتها ضخمة نوعاً ما .. من ملامح وجهها تشعر أنّها امرأة اجتماعية تعرف الحياة جيّداً .. لقد واجهت وعانت الكثير حتّى وصلت إلى هُنا .. وهي ليست صغيرة .. لا بدّ أنّها تجاوزت العقد الرّابع من عمرها !

بمجرّد أن أجابته السّلام بذلك الصّوت الخفيض حتّى حدثت تلك الشرارة !

أنت تعرفها تلك الشّرارة الّتي تصيب بعض الرّجال والنساء أحياناً .. تصطدم عينك وعينها بنفس الوقت وبطريقة غريبة ؛ لتجد أن تياراً كهربائيّاً يسري بين أجسادكما بنفس اللحظة رغم أنّ هناك مسافة كبيرة بينكما !

اتّجه (نزار) نحوهما وصافح الرّجل وأجلس نفسه على الكرسيّ المقابل .. من أوّل نظرة عرف أنّ الرّجل صديق عزيز لها وبمثابة أخ .. أو أنّه جار جاء يستشيرها بأمر معيّن .. أو أنّه تاجر يعرض شيئاً كما سيفعل هو ..

ـ المعذرة ! هل قاطعتكما ؟!

سأل هذا السؤال .. فتراجع الرّجل في مقعده وهو يقول :

ـ كلاّ كلاّ .. تفضّل .. قل ما تُريد ..

توجّه (نزار) بالكلام للسيّدة وقال :

ـ اسمي (نزار) يا سيّدتي .. وأنا مندوب عن مشغل نصنع فيه تحفاً خشبيّة

ومشغولات قماشيّة متنوّعة بكثير من الأشياء .. سأعرض عليك بعض هذه العيّنات حتّى تحكمي بنفسك .. فإذا أعجبك شيء منها سأحضر لك ما تريدين وبالعدد الّذي تطلبين .. ستستفيدين كثيراً ..

لم تعلّق على ما قال .. ظلّت ترمقه ثمّ هزّت رأسها .. وضعت يدها على خدّها وأخذت تنظر له وهو يُخرج العيّنات من الحقائب ..

هو يشرح لها ما معه .. والرّجل الذي معها يمسك المشغولات ويبدي إعجابه بها وبإتقانها .. أمّا هي فمكتفية بالنّظر فقط دون أيّ تعليق !

(No Comment) ! على رأي بعض المتحذلقين !

قال (نزار) بعد أن عرض كلّ ما عنده :

ـ .. وما رأيك الآن ؟! لقد أخبرتك عن الأسعار كلّها وأريتُك ما عندي من أصناف ؛ هل تحبّين أن أسجّل لك قائمة مشغولات تريدين أن أصنعها لك ؟! الحقيقة أنّ مكتبتك جميلة وتستحقّ أن تزيّنيها ببعض هذه المشغولات!

فاجأته بجواب غريب :

ـ سجل القائمة الّتي تريد !

ضحك مندهشاً .. وقال وهو يشعر بالحرج :

ـ عفواً .. ولكنّها مكتبتك أنتِ ! لا أعرف ما هي قدرتك الماليّة على الدّفع ولا حاجتك .. بعض النّاس طلب منّي مشغولات بخمسين ديناراً .. والبعض بمائة .. والبعض بخمسمائة ! بالمختصر أنتِ الّتي تعرفين قدرتك !

قال هذا لتجيبه نفس الجواب :

ـ سجّل القائمة الّتي تريد ! وبدون أيّ تحديد !

ضحك في سرّه .. هأ هأ ! يا لها من فرصة ! ما دام أنّها تطلب منه أن يسجّل القائمة الّتي يريد فلماذا لا يستغلّ هذا الأمر ؟! هذا سيفيده أكثر !

أمسك ورقة وقلماً وبدأ يسجّل ويحسب ويكتب .. حتّى كتب لها قائمة بضائع بمائتي دينار ! ربحه الصّافي من هذه الصّفقة لا يقلّ عن النّصف ! يا للاستغلال المشروع !

أعطاها الورقة وقال :

ـ القائمة ستكلفك مائتي دينار ! وستكون الطّلبات جاهزة عندك بعد غد بإذن الله !

ـ حسناً .. لا مشكلة !

قالتها فابتسم .. ياي ! ثمّ أدار وجهه في المكتبة وتأمل بعض المعروضات وَقال :

ـ مكتبتك جميلة .. لكن ينقصها بعض الرفوف الجميلة الخشبيّة هُنا بدلاً من هذه الرّفوف الحديديّة الّتي علاها الصّدأ .. انظري ! تخيّليها رفوفاً خشبيّة وعليها مَعروضاتك بطريقة فنيّة ؟! سيشتري النّاس رغم أنوفهم !

ثم أدار وجهه نحو زاوية ميّتة ـ في لغة التجّار ـ وأردف :

ـ .. بدلاً من أن تكون هذه الزاوية غير مستغلّة ، تخيّليها تحمل مشغولاتي الّتي سأحضرها لك بعد غد ، وعلى رفوف خشبية أنيقة ليس عند أحد مثلها.. سيكون هناك قسم لمشغولات الخشب والتّحف في مكتبتك !

في هذه اللحظة استأذن الرّجل وعرّف عن نفسه بإسم(مصطفى) .. تاجر

قرطاسيّة شهير و ـ فعلاً ـ بمثابة أخ للمرأة بسبب المعرفة القديمة بينهما .. والبنت الصّغيرة الّتي كانت ترسم وتلوّن هي حفيدته ..

بعد خروج (مصطفى) والفتاة فكّرت السيّدة بكلام (نزار) قليلاً .. أدارت الاقتراحات في رأسها ثمّ قالت :

ـ موافقة ! افعل ما تريد ! أحيِ هذه الزّاوية الميّتة وأحضر رفوفاً خشبيّة بدلا من ذلك الحديد المقزّز !

استغرب (نزار) ..

ـ أتعرفين ؟! عندي في المشغل تلك القطع الحديديّة الّتي تمسك بالرّفوف وتثبّتهم بالحائط .. عندي ستّ قطع وأنت تحتاجين لستّة رفوف !

هُنا ضحكت المرأة ..

ضحكت وقالت :

ـ يا للصّدفة الغريبة ! عندي منذ عامين ستّة رفوف خشبيّة ملقاة في إهمال في العلية .. لم أنتبه لهم يوماً أو أفكّر في استعمالهم !

ـ وأنا أيضاً ! كنت أفكر قريباً أن ألقي هذه القطع الستّة الّتي عندي لأنّها بدون فائدة بالنسبة لي .. وجودهم يأخذ حيّزاً من مشغلي كما أنّي لا أستعملهم!

ضحك الاثنان ..

من الوهلة الأولى شعرا بارتياح صاف يغطيهما ويحيط بهما .. شعور جميل..

قال (نزار) :

ـ ومتى آتيك حتى أقوم بالعمل ؟!

فكّرت قليلاً ثمّ قالت :

ـ اليوم هو الأربعاء .. وبما أنّك قلت لي أنّ العمل سينتهي بعد غد فمعنى هذا أنّك ستحضر يوم الجمعة !

قال :

ـ حسناً .. إذن يوم الجمعة !

سكتت قليلاً ثم قالت :

ـ أنا أغلق المكتبة يوم الجمعة في العادة ولكن لا تقلق .. سأفتحها من أجلك ! سأفتحه حتّى تركّب لي الرّفوف وتحضر لي المشغولات ..

ـ حسناً ..

ثمّ شكرها وخرج من المكتبة ..

الغريب أنّه استغرب من نفسه عند وصوله للمشغل .. يا لك من أحمق يا (نزار) ! قوانين الذّوق تَحْتِمُ عليه أن يسألها عن اسمها .. أن يتعرّف عليها على الأقلّ .. أن يعرف عنها بعض المعلومات بما أنّها صارت زبونة عنده ..

لم يفعل شيئاً من هذا .. لقد نسي وحسب ..

.. نسي !

* * *

جاء يوم الجمعة ..

الساعة الثالثة عصراً الآن ..

نزل (نزار) من سيّارة الأجرة ومعه القطع الحديديّة الّتي سيثبّت بها الرّفوف .. اتّجه إلى المكتبة ليجد أنّها تنتظره ..

كان (نزار) قد نسي أن يحضر معه أدوات التّثبيت .. المسامير والمطرقة والمفكّات والمثقاب الكهربائي .. تفاجأ عند دخوله وبعد إلقاء السّلام عليها؛ بتقديمها له حقيبة بلاستيكيّة مع قولها :

ـ هذه حقيبة أدوات كاملة فيها كلّ ما تحتاجه ! إنّها عندي منذ أن فتحت المكتبة ولم أستخدمها !

رائع ..

بدأ يثقب الجدران ويركّب الرّفوف وهي تقف بجانبه .. مرة تناوله المطرقة أو المسامير ومرّة تستلم منه المثقاب .. وهكذا !

ومرّت ساعتان ..

بعدها كان قد انتهى من عمله .. ليجدها تغيب قليلاً داخل غرفة ملحقة بالمكتبة في الداخل ، وتخرج منها حاملة كوبين من الشاي أعدّتهما بسرعة ..

قالت له :

ـ أعطاك الله العافية !

ـ وإيّاكِ !

بدآ يشربان الشّاي عندما بدأ الحوار ..

ـ لماذا لم تفعل كما قلت لي ؟! قلت لي أنّك ستحضر اليوم حتّى تركّب الرّفوف وتحضر المشغولات ، صحيح ؟!

ضحك ضحكة خفيفة ممتلئة بالحرج قائلاً :

ـ إحم ! في الحقيقة أنّي ... هاهاها ! انشغلت قليلاً .. كان عندي بعض الأمور الّتي جعلتني أنجز ... هاهاها ! نصف الكميّة فقط !

ساد صمت بسيط بعدها ثمّ :

ـ في بالي سؤال لم أسأله لك من قبل سيّد (نزار) !

ـ تفضّلي !

ـ أين تعمل بالضبط ؟! أين هذا المشغل الّذي تعمل فيه ؟!

قال :

ـ الحقيقة أنّي أعمل في منـزلي وليس هُناك مشغل ولا ما يحزنون !

لم يحبّ أن يقول لها عن المشغل .. لم يدر ماهيّة السّبب وقتها لكنّه وجد أنّ هذا أفضل ..

ابتسمت وهزّت رأسها في تفهُّم .. ثمّ مدّت يدها نحو درج مكتبها وأخرجت منه عشرين ديناراً ومدّت يدها بهم نحوه ..

نظر لها مستغرباً .. نظر إلى ما في بيدها ..

ـ ما هذا ؟!

قالت له وهي تمدّ يدها أكثر :

ـ عشرون ديناراً بدل أتعاب ! لقد تعبت في تركيب الرفوف اليوم وتستحقّ منّي ما هو أكثر من هذا !

ـ سامحك الله ! هل أنا هُنا حتّى أعمل وآخذ نقوداً بدلاً عن تعبي ؟! أنت

زبونتي الآن وأنا سعيد أنّ علاقتنا أصبحت إلى هذا الحدّ .. عملي هذا هديّة لك ولمكتبتك الأنيقة ..

أخذت تحاول معه أن يأخذ النقود وأخذ يرفض .. الحقيقة أنّه كان محتاجاً لهذه النّقود لكنّه رفض قاصداً الرّفض .. إنّه لا يريد أن يشعرها أنّه يفعل هذا حتّى يستغلّها أو أيّ شيء كهذا ..

شربا الشّاي وامتدّ بينهما حوار حول المشغولات وكيفيّة عملها ..

ثم قالت :

ـ هناك أمر آخر !

ـ وهو ؟!

وضعت يدها تحت ذقنها وسألت :

ـ كم عمرك ؟!

ـ هممممم ! لقد تجاوزت الخامسة والأربعين قريباً !

ـ حسناً .. الأمر الغريب أنّك رجل ممتاز في الكثير من الأمور .. وتصنع تحفاً ومشغولات تفوق الكثير من المتاجر الفخمة حتّى في المجمعات التجارية الكبيرة .. رغم هذا ليس عندك سيّارة ووضعك المالي ليس جيّداً .. وتعمل في منـزلك وليس في مشغل !

طبعاً لم يخبرها (نزار) عن ماضيه ..

تخيّل أن يخبرها ! وأن تعرف أنّه مطلوب للشّرطة وأنّ ماضيه كان في الملاهي والنّوادي ومن عمليّة احتيال إلى عمليّة نصب وبالعكس ! لم يشأ أن

يخبرها هذا كلّه .. لقد اعتبر هذا جزءاً من الماضي وانتهى .. صفحة انطوت بخيرها وشرّها وهو الآن قد فتح صفحة جديدة تاب فيها عن كلّ ما فعل .. صفحة جديدة مع الله ..

قال لها متهرّباً :

ـ لقد كانت الألوف بين يديّ بصورة أقلّ من عاديّة .. إلى أن شاركت ذات مرّة في مشروع ضخم وخسرت كلّ ما لديّ .. ولهذا أنا بدأت بناءَ نفسي الآن من جديد ..

قالت له :

ـ أسأل الله أن يفتح عليك وأن يرزقك !

صمت الاثنان قليلاً ثم سألها هو :

ـ وماذا عنك أنتِ ؟!

قالت :

ـ ماذا عنّي أنا ؟!

ـ ماذا عنك في الماضي ؟!

تنهّدت قليلاً .. إنّها تنهيدة من ذلك النّوع الّذي يوحي بالكثير ..

قالت :

ـ أنا كنت موظّفة في (مصلحة البريد) لمدّة خمسة وعشرين عاماً !

ـ وما اسمك ؟! يا إلهي ! تخيّلي أنّي إلى الآن لم أعرف ما اسمك ! يقولون لك أمّ ماذا ؟! أمّ من ؟!

ابتسمت ابتسامة غامضة وسكتت قليلاً .. ثمّ قالت :

ـ أنا لست أمّاً لأحد ! واسمي هو (منيرة) ! أنا لم أتزوّج في حياتي !

تراجع في مقعده وقال :

ـ يا الله ! غير متزوّجة ؟! لكنّني ـ بلا مؤاخذة ـ عرفتُ أنّ عندك بيتاً كبيراً وأنّ هذه السيّارة الحمراء الّتي تقف أمام باب المكتبة هي سيّارتك ..

ضحكت وقالت :

ـ نسيت أن أخبرك أيضاً أنّي آخذ مرتّباً بعد تقاعدي من (مصلحة البريد) يقارب الأربعمائة دينار شهريّاً .. وأنّ هذه المكتبة باسمي .. وبيت أهلي باسمي أيضاً !

ضرب (نزار) كفّاً بكفّ وقال :

ـ هذا ما أقصده ! امرأة مثلك بهذه المواصفات وعندها هذه الأخلاق الّتي أراها ؛ ورغم هذا لم تتزوّجي لغاية الآن ؟! كم عمرك ؟!

ـ أربع وأربعون عاماً !

ـ حسناً .. إذن لماذا لم تتزوّجي ؟!

تنهّدت تنهيدة أخرى وقالت :

ـ آه ! أنت تعيدني إلى الماضي .. كثير من زملائي في الجامعة حاولوا أن يتقرّبوا منّي وكنت دوماً أصدّهم .. كثير من زملائي أثناء عملي في (البريد) جاؤوا إلى بيت أهلي وطلبوا يدي وكنت أرفض .. الكثير من زميلاتي كُنّ يحضرن أمهاتهنّ حتى يخطبنني لأشقّائهنّ .. الكثير من النّسوة اللّواتي كنّ

يحضرن إلى المكتبة .. مع هذا كنت دوماً أرفض .. أرفض باستمرار .. باستمرار .. إلى أن بلغت هذا العمر !

ولم يسأل (نزار) عن السّبب ..

أردفت (منيرة) :

ـ .. الغريب أنّني شاهدت في حلمي أنّك ستزورني !

ـ ماذا ؟!

ـ شاهدتُك قبل يومين من حضورك الأوّل ! لم أشاهدك أنت بالضبط .. بل شاهدت أنّ هناك رجلاً جاء إلى المكتبة وأصلح رفوف المكتبة ! كنت تشعّ نوراً في الحلم يا (نزار) !

نظر (نزار) نحوها .. وقال :

ـ حقّاً ؟!

ـ نعم ! بمجرّد أن دخلت إلى المكتبة قبل يومين تذكّرت رؤياي على الفور ! تهيّأ لي أنّه أنت ! أنت المقصود في حلمي !

هنا تذكّر (نزار) ..

لقد دخل المكتبة وعرض البضاعة عليها وعلى ذلك الرّجل (مصطفى).. كانت هي طوال الوقت شاردة الذّهن ويدها على خدّها .. كانت كأنّها تفكّر.. كأنّ هناك ما يشغل تفكيرها بشدّة !

قالَ (نزار) :

ـ سؤال !

ـ تفضّل ؟!

ـ لماذا كنتِ دائماً ترفُضين الزّواج ؟!

تنّهدت تنهيدة عميقة .. يا إلهي ! أحسّ (نزار) أنّ تنهيدتها تحمل سراً غامضاً مغ قولها :

ـ الزّواج قسمة ونصيب .. وكنت أرفض دائماً لأنّه لم يكن يعجبني أيّ أحد !

ـ آهـا !

قالها وقد تراجع في مقعده .. تطرّق الحديث بعدها إلى أكثر من أمر ثمّ سألها :

ـ أين تسكنين ؟!

ـ أنا هنا .. قريب من هذه المنطقة .. في الحيّ الجنوبي .. عندي (فيلا) صغيرة نوعاً ما .. والدتي متوفّاة .. أعيش مع والدي المريض بالزهايمر وأنا أتحمل تكاليف علاجه ..

سألها :

ـ هل أنتِ وحيدة ؟!

ـ كلاّ .. عندي أخوان في (الإمارات) .. وأختان وأخ هنا في (عمّان)..

ثمّ نظرت إليه وأردفت :

ـ .. منذ زمنٍ بعيد لم أتكلّم مع أحد بهذه العفويّة .. الشيء الوحيد الذي جعلني أطمئنّ إليك هو الحلم .. كما أنّ وجهك بشوش ولا يوحي بأيّ سوء..

قالتها فنهض .. لقد أحسّ أنّ عبارتها قيلت كي تنهي الجلسة ..

قال :

ـ على العموم فرصة سعيدة .. وأنا سعيد لأنّي أعرف سيّدة خلوقة مهذّبة مكافحة مثلك .. وصديقة أيضاً لو تسمحين .. وزبونة دائمة !

ـ أشكرك على كلّ ما فعلت ..

ـ هل تعرفين أنّ أمي وأبي يسكنان قريباً من هنا ؟!

قالت في دهشة :

ـ حقّاً ؟!

ـ نعم ..

قالت :

ـ ربّما أزور والدتك ذات يوم .. على العموم أشكرك من جديد وأنا أعلم أنّي مشاغبة وقد أرهقتُك معي كثيراً ..

ـ يا شيخة ! ليس هناك أيّ نوع من التعب !

ـ متى ستحضر البضاعة الّتي اتفقنا عليها ؟!

ـ غداً !

نظرت له :

ـ أنت ذاهب الآن ؟!

ـ نعم .. إلى اللقاء .. أراكِ غداً .. اهتمّي بنفسِك ..

لوّحت له بأصابعها بينما غادر هو المكان ..

الفصل الثالث

جاء اليوم التّالي ..

طوال النّهار كان (نزار) في المشغل .. يعمل ويعمل بلا كلل أو ملل .. إلى أن صارت الساعة السادسة مساءً تقريباً..

كانت أمامه شطيرة (فلافل) وكأس من الشاي الرخيص .. وعيناه شاردتان في الفراغ !

كاد يهمّ بالنّهوض ليخرج مع البضاعة نحو مكتبة (منيرة) عندما تذكّر أنّه لم يدفع إيجار البيت الذي فيه زوجته وأولاده منذ ستّة شهور .. يا إلهي ! إنّه يحتاج خمسمائة دينار على الأقلّ !

ولكن كيف ؟!

هنا قفزت إلى مخيّلته (منيرة) !

إنّهما أصبحا صديقين .. نظراتها له تحمل معنى يفوق هذا .. ربّما هو إعجاب .. لا يدري .. الغريب أنّ هناك شعوراً ـ ما ـ نحوها ولكنّه ليس الإعجاب .. إنّه الارتياح العارم والرّضا التّام عن الحياة وهو معها .. ياه ! هذا رغم أنّه لم يعرفها إلاّ منذ فترة صغيرة للغاية !

بصراحة ؛ (منيرة) هي الحلّ !

إنّ 21 / 3 اقترب وهذا يعني أنّ عيد الأمّ قادم .. المشكلة أنّه لم يحتفل قطّ بهذا العيد من قبل ! ولكنّه أعطى لنفسه عذراً للاحتفال به بأنّه تاجر لن يهمّه أيّ مناسبة بقدر ما يهمّه ماذا يبيع خلالها ..

سيقول لـ (منيرة) أنّه يحتاج مبلغاً ماليّاً حتّى يشتري الكثير من المواد الخام حتّى يصنع ويعمل الكثير من أجل عيد الأمّ .. والرّبح يتوزّع على النّصف ! هذه ستكون طريقة جيّدة حتّى يتخلّص من إيجار البيت وحتّى تزداد علاقتهما بسبب الرّبح الّذي ستربحه منه !

أعجبته الفكرة ..

نهض واغتسل وبدّل ملابسه .. ثمّ حمل البضاعة وركب سيّارة أجرة واتّجه إلى مكتبة (منيرة) ..

دخل إلى المكتبة .. استقبلته بحفاوة .. بدأ يخرج المشغولات واحدة بعد الأخرى وبدأ يضعها على الرفوف بطريقة جميلة جداً .. بدأ يوضح لها بعض المسميات والتكلفة وسعر البيع .. إلى آخر هذه الأمور التجارية !

فجأة قالت له :

ـ قلت لي أنّ والديك يعيشان قريباً من هنا ؟!

ـ نعم .. لماذا ؟!

قالت في لهفة :

ـ أحبّ أن أتعرّف على والدتك ! هل هذا ممكن ؟!

نظر لها (نزار) وقال مبتسماً :

ـ بكلّ سرور ! أخبريني عن الوقت الّذي تريدين الذّهاب به إليها وأنا جاهز !

ـ الآن !

ـ الآن ؟!

هزّت رأسها :

ـ الآن ! سأغلق المكتبة الآن بما أنّ الساعة السابعة والنصف تقريباً .. نحن في الشتاء ولا أظنّ أنّه سيأتيني أحد لشراء قرطاسية في هذا الوقت إلاّ الكُسالى !

خرجا .. ركب بجانبها وانطلقت تقود سيارتها تحت المطر الّذي كان يهطل في غزارة !

في الطريق كان (نزار) يفكّر .. ممتاز ! ستتعمّق العلاقة بينها وبين أمّه وهذا سيكون في صالحه .. ربّما أخذ منها ألف دينار وليس خمسمائة فقط !

وصلا هناك .. لم يكن والده موجوداً ! بينما استقبلت والدته (منيرة) بشكل جيّد جداً .. أخبرها من هي وشرح لها شيئاً مما فعل لها في مكتبتها .. صنعت أمّه عشاءً وتناولوه كأسرة واحدة ..

قالت (منيرة) :

ـ والدي تعدّى التّسعين عاماً منذ فترة قريبة ومريض بالزهايمر وأنا أعتني به في المنـزل .. والدتي توفّيت بالسّرطان منذ عشر سنين .. ولهذا سأعتبرك مثل أمّي منذ هذا اليوم يا حاجّة !

رسمت الحاجة (مديحة) على وجهها تعابير العتاب .. وقالت :

ـ أنا أرفض هذا الطلب !

نظرت إليها (منيرة) في استغراب يحمل حرجاً ، وقالت :

ـ لماذا ؟!

ـ لأنّني أريد أن تعتبري نفسك جزء منا بدون هذه الطريقة في الطلب .. تعالي عندي كلّ يوم .. تناولي الفطور والغداء والعشاء .. أهلاً وسهلاً بك في أيّ وقت ..

مَرَّ الوقت وخرج (نزار) مع (منيرة) حتّى يوصلها إلى السيّارة .. وكان يفكّر وهو يمشي بجانبها : هل يفاتحها بموضوع الألف دينار الآن أم يؤجّلها إلى الغد ؟!

لكنّه خاف أن يخبرها الآن حتّى لا يراودها الشّيطان ويوسوس لها : بأن (نزار) قد عرّفها على والدته وتناولوا العشاء سويّاً وهكذا ، لأنّه يريد أن يستغلّ الفرصة ويطمع فيها ويطلب هذا المبلغ الكبير !

لهذا رأى (نزار) أنّه من الأفضل أن يؤجّل الموضوع يوماً أو يومين ..

وصلا إلى السيّارة .. فقالت :

ـ أين طريقك الآن يا (نزار) ؟! هل ستنام هنا ؟!

نظر إلى ساعته .. إنّها العاشرة مساءً تقريباً !

قال :

ـ لا ! أريد أن أنام في المشغل !

ـ حسناً .. سأوصلك .. إنّ الوّقت متأخر الآن !

ضحك وقال :

ـ عادي ! لقد اعتدت على هذا منذ زمن بعيد .. أشكرك جداً ..

ـ إذاً سأوصلك إلى المجمّع القريب !

رفع يده معترضاً مع قوله :

ـ لا ! أوصليني إلى الشّارع الرئيسي القريب من مكتبتك .. هذا كافٍ تماماً ..

أخرجت مفتاح السيّارة من حقيبتها وقالت :

ـ أرجو أن يكون معك بعض الوقت .. أريد أن أجلس معك قليلاً في المكتبة .. أودّ أن أشرب معك كوباً من الشّاي !

نظر لها .. ثمّ قال في ترقّب :

ـ أهناك شيء ما ؟!

قالت وهي تهزّ يدها نفياً :

ـ تقريباً ! أريد أن أصارحك ببعض الأمور فقط لا غير ..

ركبا وذهبا إلى المكتبة .. كان الجوّ ما يزال ممطراً وكانت الساعة العاشرة والنّصف تقريباً .. ليس هناك أيّ متجر أبوابه مفتوحة في الشّارع كلّه !

جلسا في الداخل .. صنعت كوبين من الشّاي .. بدآ يحتسيانه وكان لذيذاً فعلاً ..

قالت له :

ـ أخبرتني قَبل هذه المرّة أنّ عليك قضيّة في المحكمة وتريد إنهائها بمبلغ مالي ضخم .. ما هذه القضيّة ؟!

لحدّ الآن لم يكن (نزار) قد أخبرها بشيء .. كان ـ كما سبقَ ـ قد أخبرها أنّه دخل بنقوده كلّها بمشروع استثماري وخسر كلّ أمواله ويريد البدء بنفسه من جديد .. هكذا كان قد أفهمها ..

لا يدري ما الذي ثقب لسانه فجأة وجعله يخبرها بكلّ التفاصيل !

أخبرها كلّ شيء .. لم يترك شيئاً من سجون ونصب ومطاردات إلاّ وأخبرها .. طبعاً أخبرها كلّ الأمور إلاّ أموره النّسائيّة ! كان هذا سينفّرها منه حتماً ولهذا جعله سرًّا بينه وبين نفسه ـ وبخاصّة أنّه تاب منه ـ ..

المهمّ أنّه أفهمها أنّ بطاقته الشخصيّة ورخصة قيادته وجواز سفره وقضايا المحكمة ، كلّ هذا سيكلّفه ستة آلاف دينار تقريباً حتّى ينهي كلّ ما عليه !

ـ كم ؟!

قال :

ـ ستّة آلاف دينار !

هزّت رأسها .. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت مفتاحاً غريب الشّكل.. مدّته في ثقب خزانة من خزائن الأمان أسفل مكتبها وأخرجت حقيبة أخرى بنية اللون .. أخرجت منه نقوداً وبدأت تعدّ .. ثمّ مدّت إليه ستّة آلاف دينار بالتمام والكمال وبأرقام متسلسلة !

قالت :

ـ هل ترى هذا المبلغ ؟! اذهب غداً صباحاً وأنهِ كل القضايا والأمور والدّيون الّتي عليك !

كان موقفاً أقرب إلى الخيال ..

لم يصدّق (نزار) نفسه ..

من يفعل مثل هذا الأمر في هذه الأيّام ؟!

أصابه شعور عارم .. شعور غريب .. شعور رائع ومريح .. وانطلقت في خياله ألف فكرة وفكرة .. أوّلها وأهمّها أنّه أصبح الآن نظيفاً ! هناك ستّة آلاف كاملة بين يديه !

يا إلهي الرحيم !

ستة آلاف !

ستّة آلاف !

ستّة آلاف !

رنّ الرّقم في أذنيه دون صوت .. قلبه يدقّ بقوّة تفوق المعتاد ويخفق كالهدير ..

ددب ! ددب ! ددب ! ددب ! ددب ! ددب ! ددب !

نظر لها وقال غير مصدّق :

ـ نعم يا بنت الحلال ؛ سأسدّ ديوني وأنهي كلّ ما عليّ ولكن سيكون عليّ بعدها أن أقوم بالسّداد .. كيف سأسدّك هذا المبلغ الهائل ؟!

رمقته بنظرة عتاب قائلة :

ـ لا تجعلني أغضب منك ! أنا لا يهمّني السّداد الآن ! أنا لم أعطك هذا المبلغ حتّى تبدأ التّفكير في طريقة سداده ! المهمّ الآن أن تنهي ديونك كاملة وتخلّص نفسكَ من كلّ ما يكبّل حياتك .. لا أريد منك أيّ ورقة أو شيك بنكي أو أيّ شيء من هذا الكلام الفارغ ..

ثمّ مدت يدها نحو مصحف موضوع بصورة دائمة فوق مكتبها ، وقدّمته له مردفة وقد وضعت يدها أسفله :

ـ .. ضع يدك فوقه !

وضع يده فاستطردت :

ـ .. هذا الذي بيننا ! لا ورقة ولا أيّ شيء آخر ! ولا تنسى أنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا ! إنّ إيماني بالله كبير وأنا لا أدري ما الذي يدفعني لمساعدتك ولكنّها قوّة تفوق إرادتي !

ثمّ تناولت قلماً وفتحت القرآن على الصفحة التي تلي الغلاف مباشرة وكتبت :

«من (منيرة) إلى الأخ (نزار)» ..

بعدها دار حوار قصير ثمّ غادر المكان رافضاً أن توصله إلى أيّ مكان وقد شكرها ألف ألف مرّة !

الساعة الآن هي الحادية عشرة والنصف ليلاً تقريباً ..

كان سعيداً وكان يمسك المغلّف الذي فيه المبلغ بكلتا يديه في قوّة .. كان متوتّراً أيضاً .. جاءه خاطر بأنّ هناك دوريّة شرطة ستمرّ بقربه ويطلبون بطاقته في هذا الوقت .. لم يكن من الأمان أبداً أن يرجع للمنـزل أو للمشغل بالأحرى .. لهذا رجع إلى منـزل والديه ..

وجد والده قد رجع فعانقه من فوره .. كان سعيداً جدًّا .. ثمّ أخبرهما بالقصّة كاملة !

قالت الحاجة :

ـ هذا رزق فاشكر ربّك !

قالت هذه الكلمة فتذكّر الحلم .. ذلك الحلم الوحيد الّذي استطاع تذكّره في حياته كلّها !

لقد فسّره الجميع بأنّه رزق .. وفسّره الشّيخ بأنّه رزق .. لكنّ الوقت والكيفيّة ـ حينذاك ـ لا يعلم بهما إلاّ الله !

المهمّ :

.. نام عند والديه !

* * *

في اليوم الثاني اتّصلت (منيرة) معه صباحاً .. سألت عن صحّته واطمأنّت على أحواله ولم تسأل عن النّقود أو عن إجراءات المحكمة إطلاقاً ..

بعدها اتّصل (نزار) بصديق له يعمل في المحكمة .. إنّه يعرف الكثير من الّذين سيساعدونه ..

ـ (محمّد) ! أريد أن أستعيرك لمدّة عشرة أيّام !

ـ لماذا يا (نزار) ؟!

ـ معي ستّة آلاف دينار وأريد أن أنهي قضاياي ! كلّها !

قال صاحبه وقد غمغم غمغمة شكّ :

ـ من أين لك هذه النّقود يا (نزار) ؟!

ضحك (نزار) وأجاب صديقه :

ـ هاهاها ! لا تقلق !

.. وأخبره بقصّته مع (منيرة) بسرعة .. رؤوس أقلام !

وبدأ بعدها العمل ..

اثنا عشر يوماً كاملة .. اثنا عشر يوماً من الثّامنة صباحاً حتّى الثالثة عصراً تقريباً ، و (نزار) و (محمّد) يعملان ويعملان ويروحان ويجيئان بالمعاملات والأوراق الرسميّة والأختام والطوابع وكلّ ما له علاقة بهراء الروتين الرّسمي ، حتّى أنهى (نزار) قضاياه ورجع نظيفاً أبيضَ في سجلاّت الدّولة!

تعب يستحقّ .. ثمّ عادت إليه البطاقة الشخصيّة ورخصة القيادة وجواز السفر !

رائع للغاية ! يتمنّى أن يشكرها شكراً عملاقاً من أعمق أعماق قلبه .. ربّما قرب الشّعب المرجانيّة الّتي هناك !

خلال هذا الوقت كلّه كان يرى (منيرة) كلّ يوم مساءً .. وكان يذهب معها عند والدته ويتناولان العشاء ..

حمداً لله أنّ زوجته (منى) لم تسمع شيئاً عن (منيرة) وإلاّ علّقت له حبل المشنقة !

ثمّ ..

.. جاء يوم !

الفصل الرابع

كانا جالسين في المكتبة كالمعتاد عندما صمت قليلاً وتأمّلها بعينيه مليّاً ..

هل يخبرها ؟!

ـ ما بك يا (نزار) ؟!

حسم تردّده وقال :

ـ لا شيء .. أريد أن أصارحك بأمر بسيط ..

ـ وهو ؟!

عدّل جلسته ونظر في عينيها مباشرة قائلاً :

ـ أنا معجب بك جداً .. معجب بأخلاقك والتزامك وأسلوبك في الحياة والتعامل مع النّاس .. لماذا ترفضين الزّواج حتّى الآن ؟! نعم أنا متزوّج وعندي أولاد ولكنّي أتمنّى أن أكون مع امرأة مثلك .. امرأة بشوشة وعاقلة ولا تفارق الابتسامة وجهها .. بعكس جوال البطاطس الملقى عندي في المنـزل والذي يدعوه البعض (منى) !

ضحكت وقالت :

ـ لماذا لم أتزوّج حتّى الآن يا (نزار) برأيك ؟!

ـ لقد قُلتِ لي أنّه بسبب النّصيب ، وأنّه لم يعجبك أيّ واحد من الّذين تقدّموا لكِ !

هزّت رأسها نفياً مغمغمة وهي تتنهّد :

ـ هووووف ! ليس هذا هو السّبب الأساس !

قال :

ـ وما السّبب الأساس ـ إذن ـ ؟!

نظرت إليه وكأنّها تشاور عقلها في أن تخبره أم لا .. ثمّ قالت :

ـ أنا عندي مشكلة ستكون عائقاً لك !

قال في استخفاف :

ـ ما هي ؟! أنا لن توقفني أيّ مشكلة !

ـ أنا لست كأيّ امرأة أخرى !

قال مستفهماً يريد المزيد من التّوضيح :

ـ والمقصود ؟!

ـ عندي مشكلة !

سألها في جرأة :

ـ ما هي ؟! معذرةً .. هل تخشين الحياة الجنسيّة ؟!

تضرّج وجهها بحمرة الخجل وهي تجيب :

ـ لا !

عقد حاجبيه وسأل :

ـ هل أنت عقيم ؟!

ـ أيضاً لا !

قال وهو يضحك :

ـ ما دمتِ لا تخافين ولستِ عقيماً فما المشكلة ؟!

نظرت نحوه .. وجهها كأنّه حبّة طماطم طازجة قطفت للتوّ !

قالت :

ـ الحقيقة أنّ عندي تشوّهاً في منطقتي التناسليّة !

ـ كيف ؟!

ـ عندي تشوّه خَلْقي !

ـ كيف هو هذا التشوّه الخلقي ؟! وأرجو أن تتكلّمي باستفاضة ودون خجل لأنّنا نتحدّث عن موضوع زواج ها هنا !

أجابته في خجل :

ـ الحقيقة أنّي بدون رحم !

ـ آهـا ! فقط هذا ؟! لا مشكلة فأنا عندي خمسة ولا أريد المزيد !

ـ ليست هنا المشكلة !

عقد حاجبيه للمرة الثانية وقال :

ـ إذن أين المشكلة ؟!

ـ مشكلتي هي في أجزائي التناسليّة الخارجيّة نفسها ! إنّها متضخّمة بشكل كبير جداً وحجمها يقارب الإبهام تقريباً ! كما أنّه ليس عندي مهبل مثل كلّ النساء ! أي أنّني لا أقوم بالحياة الجنسيّة ! حياتي تعيسة وعشتها وحيدة لكنّني صابرة لله فقط ! نفسيّتي تتحطّم كلّما ذكرت هذا الموضوع لكنّني أعود للصّبر من جديد ! أتمنّى أن أكون مع إنسان يحبّني وأحبّه في نفس البيت وتحت نفس السّقف لنتقاسم نفس رغيف الخبز .. حتّى لو أنّي لا أستطيع الإنجاب .. حتّى لو أنّني حرمت من حياتي الجنسيّة .. غير مهمّ.. المهمّ أن أكون مع إنسان أحبّه ويحبّني .. أسهر معه وأنام متوسّدة صدره .. أخرج أنا وهو سويّاً .. هو زوجي وأنا زوجته .. لكنّني وحيدة .. ليس لي إلاّ أبي التّسعيني .. أشقّائي وشقيقاتي دائماً يسألون عن كلّ شيء وحياتي تشبه الجحيم بسببهم رغم كلّ النّقود الّتي أملكها ، وأنفق الكثير منها عليهم !

تأمّلها (نزار) .. إنّها متألّمة جدًّا ويبدو أنّه سيخرجها من كلّ هذه الدوّامة لو تزوّجها ..

قال لها :

ـ ليسْ عندي مشكلة في أيّ شيء نطقه لسانك !

نظرت إليه في دهشة :

ـ ماذا تقول ؟! ولكن كيف ؟! كيف سيكون زواجك معي بهذه الطريقة؟!

ـ إذا كنت تقصدين الناحية الجنسية فأنا مكتفٍ من زوجتي النائمة الآن

حتماً ! وإذا كنت تقصدين الأطفال فأنا لا أريد أن أفتتح مدرسة صغيرة عندي! إنّ عندي خمسة إن لم أخبرك ! لكنّ الّذي يهمّني أن أكون معكِ أنت.. مع امرأة طيّبة ومرحة وخلوقة وحنونة .. مع امرأة أجلس معها فأنسى الهموم ومشاكل الحياة .. أولادي يثيرون جنوني في المنـزل ! زوجتي تنغص عليّ معيشتي وقد أصبحت عصبيّة سمينة لا تفهمني في الآونة الأخيرة !

بعدها دار بينهما حوار طويل حتّى توصّلا إلى اتّفاق : هي موافقة .. وهو موافق على كلّ ما أخبرته به !

أحبّ (نزار) أن يُشعرها بالسّعادة .. لقد ساعدته على استعادة حياته والوقوف على قدميه من جديد !

* * *

أخبر (نزار) والديه بكلّ شيء إلا عن تشوّهها .. وبأنّه يحبّها ويريدها زوجة له ..

ـ وماذا عن (منى) ؟!

ـ فلتنسوا أمرها !

طبعاً لم يخبر أيّ منهما عن اتّفاقه مع (منيرة) .. من اللامنطق أبداً أن يقول هذا الأمر ..

في المعتاد يكون طلب يد البنت للزّواج من الأب .. وبما أنّ الوالد مريض بالزّهايمر فقد انتقلت سلطة ولاية الأمر إلى (أمّ أحمد) ..

من (أمّ أحمد) ؟!

ألا تعرف من (أمّ أحمد) ؟!

(أمّ أحمد) يا عزيزي هي الأخت الكبيرة لـ (منيرة) .. امرأة محنّكة داهية عانت وكافحت في الحياة وقد تجاوزت الخمسينات .. امرأة من الطّراز الّذي يقولون عنه : (قويّة) !!

نعم هي قويّة وربّ السماوات ! ضخمة الجثة ممتلئة البدن ، ملامحها قاسية نوعاً ما وتتكلّم مع أيّ شخص بتكبّر ومن رأس أنفها !

تفاجأ (نزار) ووالداه برفض تامّ من (أمّ أحمد) !

طبعاً لم تكن (أمّ أحمد) فقط في استقبالهم .. كان شقيق (منيرة) وشقيقتها موجودين ـ أيضاً ـ لكن كان واضحاً أنّ الآمرة والنّاهية هِي (أمّ أحمد) ..

قالت :

ـ إنّنا نعتذر بشدّة .. نحن نرفض تزويج ابنتنا .. لقد مضى عليها قطار العمر وانتهى دورها ..

هبّ (نزار) صائحاً :

ـ لكن لماذا ؟! عندكم ابنة محترمة رائعة مثل هذه وطيلة عمرها تقف بجانبكم وتساعدكم وتعالج والدها ، لم تقصّر مع أحد منكم وعاشت وحيدة، فلماذا لا تكونون سعداء لأنّها وجدت إنساناً يحبّها ويريد أن يسعدها في هذا السنّ ؟!

صرخت (أمّ أحمد) بوجهه :

ـ نحن لا نريد تزويجها وهذا يكفي! الشأن شأننا وهو ليس من اختصاصك أبداً ولا أريد أن تتكلّم به !

ثمّ أشارت بيدها إلى باب المنزل دون أن تكلّف نفسها بالنّهوض .. وكانت الطّريقة في غاية الوقاحة والبجاحة !

كان هذا بمثابة طرد صريح لهم من المنزل ..

فخرجوا ..

ثمّ جاء اليوم التّالي جالباً معه اتّصالاً هاتفيّاً لـ (نزار) من (أمّ أحمد)..

قالت في شراسة :

ـ اسمع يا هذا ! منذ هذا اليوم وصاعداً لن تكلّم ابنتنا ! لن تصنع لها المزيد من تلك المشغولات الخشبيّة الغبيّة ! لن تذهب إليها عند مكتبتها وإلاّ فعلنا بك العجائب !

قال في صرامة :

ـ اسمعي أنتِ ! إذا كان رفضكم لي على أساس حالتها التناسلية فأنا لست معترضاً وموافق وأبصم بموافقتي بأصابعي العشرين !

صرخت (أمّ أحمد) بالهاتف في جنون :

ـ هل أخبرتك عن حالتها ؟!

ـ نعم أخبرتني .. لم تترك شيئاً من موضوع التشوّه الخلقي إلاّ وأخبرتني به .. وأنا مستعدّ أن أتزوّجها !

قالت مستفهمة :

ـ ولماذا هذا الاستعداد لأن تتزوّجها ؟! هل هناك رجل عاقل يرضى بهذا الحال ؟! لولا أنّك طامع فيها وبنقودها لما قبلت ولو على جثّتك !

ـ أنا لست طامعاً فيها يا (أمّ أحمد) كما تظنّين .. أنا على استعداد لأن أكتب لكم ورقة صغيرة قبل أن أعقد قراني عند المأذون .. ورقة تنازل منّي بكلّ ما

عندها ! أنا أحببت هذه الإنسانة بسبب أخلاقها ودينها وأسلوبها وطيبتها .. وإذا كنتِ تسأليني عن ذاك الموضوع فأنا لا أريد هذا الأمر منها.. أنا لا أريد إلاّ أن أشعِرها بالسّعادة .. فهي إنسانة تستحقّ السّعادة بعد أن عاشت أربعةً وأربعين عاماً من عمرها دون رفيق .. كلّ هذه السّنين قضتها في غرفتها تبكي على حالتها ! لماذا تمانعون أن تشعر ابنتكم بالسّعادة ؟!

صاحت (أمّ أحمد) :

ـ كذّاب ! هل كلّ ما يشغل تفكيرك الآن أن تجعل (منيرة) تشعر بالسّعادة؟! أنت طامع بثروتها .. وابنتنا لا تصلح للزّواج!

قال في سرعة :

ـ حسناً .. أنا أعلم بهذا الأمر !

قالت محاولة إيجاد مخرج آخر :

ـ هذا لا يجوز شرعاً !

ـ بل يجوز ! لقد سألت الكثير من الشّيوخ عن هذه الحالة بالذّات وكان جوابهم من حسن حظّي !

قالت :

ـ حتّى ولو ! لكنّه لا يجوز عندنا رغم كلّ شيء وابتعد عنها لأنّ في ابتعادك حفظاً لنفسك !

قال منهياً المكالمة ـ فقد شعر بالملل واليأس من مناقشة هذه العيّنة الغبيّة ذات الدماغ الحجري ـ :

ـ حسناً .. إنّها ابنتكم وأنتم أحرار فيها ! سلام ! أنتم من طريق وأنا من طريق !

ثمّ أنهى المكالمة !

طبعاً هذه العبارة قيلت هكذا .. إذ أنه أنهى المكالمة ليتّصل مع (منيرة) على الفور !

أخبرها بما جرى من أختها المستبدّة .. سمع تنهيدتها تخرق أذنه .. تنهيدة من ذلك النّوع الّذي يحرق الأخضر واليابس لو أنّه ينقلب ناراً ..

قالت (منيرة) :

ـ هذه هي حياتي يا (نزار) ! ألا ترى كم هي سوداء ؟! إنّهم يسيطرون عليّ ولا أستطيع أن أفعل شيئاً أبداً ! والله ساعدتهم كثيراً .. دفعت لهم ولأجلهم مبالغ طائلة جداً كلّها من عرق جبيني .. أدفع لأجل والدي ما يقارب الألف دينار كلّ شهر حتّى أعالجه .. ساعدتهم ودفعت لهم عشرات الألوف .. بعد هذا يريدون حرماني من هذه السعادة التي أحتاجها الآن ؟! لا حول ولا قوّة إلاّ بالله وحسبي الله فيهم !

سكت (نزار) قليلاً بعد هذه العبارة التي قيلت بصوت يحمل كل الحرقة التي في العالم .. ثمّ قال :

ـ حسناً .. عندي حلّ ولكنّي سأخبرك به في الليل ! اهتمي بنفسك !

.. وأنهى المكالمة !

* * *

في الشقة التي فيها المشغل ، وبعد أن ملأ بطنه بوجبة جاهزة اشتراها من

مطعم أمريكي ؛ ركب (نزار) سيّارة أجرة ، واتّجه متخفّياً بثياب خليجيّة إلى مكتبة (منيرة) ..

نزل من السيّارة متلفّتاً يمنة ويسرة .. ثم دخل المكتبة ..

قال :

ـ أتعلمين من الطّامع الحقيقي بكِ وبنقودِك ؟!

ـ من ؟!

جلس وهو يقول :

ـ إنّها شقيقتك (أمّ أحمد) ! هي الّتي لا تريد أن تزوّجك أو أن توصلك إلى هذه المرحلة .. لقد قالت لي بأنّك لا تصلحين للزّواج !

قربت مقعدها من مقعده سائلة إيّاه :

ـ هل سألت شيوخاً حقّاً ؟!

ـ نعم ! وإذا لم تصدّقيني فسأتّصل الآن بواحد من رجال العلم الأفاضل.. وسأفتح مكبّر الصّوت الّذي بالهاتف حتّى نسمع سويّاً ما سيقول !

ثمّ أخرج ورقة من جيبه وطلب الرّقم المكتوب عليها واتّصل مع الشّيخ..

أخبر (نزار) الشّيخ بالموضوع فكان الجواب :

ـ حتّى لو لم يدخل بها وكان الزّواج بشروطه الشرعيّة .. فهو زواج صحيح !

ـ شكراً يا شيخ !

ثمّ أنهى الاتّصال والتفت نحوها قائلاً :

ـ أترين ؟! كيف تقول (أمّ أحمد) أنّه لا يجوز ؟! كيف تحرّم ما أحلّ الله ؟! إنّها تفعل هذا لأنّها لا تريد تزويجك .. إنّها تريد نقودك فحسب !

ثمّ سكت قليلاً واستطرد :

ـ .. عندي اقتراح .. وهو الحل الوحيد أمامنا الآن !

ـ وهو ؟!

ـ أن نتزوّج بالسرّ !

***

الفصل الخامس

ساد صمت بعد اقتراحه المفاجئ ..

قال مكملاً :

ـ .. ومن الممكن أن نستأجر بيتاً بعد الزواج .. وتصبح لقاءاتنا كلّها فيه!

سكتت (منيرة) .. أدارت الأمر برأسها من كل الجوانب ثمّ قالت :

ـ وأنا معك !

ثمّ سكتت قليلاً ..

بعدها أخرجت نفس المفتاح الغريب الشّكل من حقيبتها ، وفتحت نفس الخزانة الّتي تقع أسفل مكتبها .. وأخرجت منها نفس الحقيبة البنيّة!

قالت :

ـ لقد سددت دينك وانتهى هذا الهمّ .. بقيت عليك السيّارة .. أنت تعمل مع سوق كبير .. هل سيبقى حالك في التّوزيع هكذا ؟!

قال :

ـ السيّارة لا بدّ منها وأسأل الله أن يعينني على شرائها بعد فترة .. سأسعى في هذا ..

قامت بسؤاله :

ـ وكم سعرها تقريباً ؟!

ـ بحدود الآلاف الأربعة تقريباً .. لماذا تسألين ؟!

هنا كانت المفاجأة الجديدة ..

فتحت الحقيبة البنيّة الّتي كانت خلال حديثهما في حضنها وأخرجت منها الكثير من الرّزم الماليّة .. قامت بالعدّ ثمّ ناولته مجموعة من الرّزم قائلة :

ـ خذ ! هذه أربعة آلاف دينار اشترِ بها السيّارة ..

ثم أعطته رزماً أخرى مضيفة :

ـ .. وخذ هذا المبلغ أيضاً ! إنّه ألفا دينار ! قم بتجهيز بيت وتجهيز عقد الزّواج !

وكانت سعادة (نزار) لا توصف ..

لم يكن بإمكانه الرّفض ..

وَلم يكن بإمكانها التبرير ..

المهمّ أنّه بدأ بعدها بإجراءات عقد الزّواج ..

(منيرة) لم تتزوّج في حياتها واسمها هو (بنت) في القانون .. يجب أن يوافق وليّ أمرها .. وبما أنّه مريض بالزّهايمر فقد دفعا الكثير من النّقود واستعانا بمحام محترف حتّى استطاعا أن يحصلا على ورقة تتيح لها تزويج نفسها بنفسها .. هذا بعد أن استطاعا أيضا ـ بطريقة أو بأخرى ـ أن يشككوا في ولاية (أمّ أحمد) عليها ..

وتمّ حفل الزّواج ..

الحفل كان سريّاً جداً ولم يحضره سوى والدي (نزار) فقط باستثناء (نزار) و (منيرة) .. هاها ! تخيّل حفلاً من دون العريس والعروس ؟!

المهم أنّ الأمر تمّ على خير ..

.. ثمّ جاءت ليلة الدّخلة !

***

كانت ليلة مميّزة ..

(نزار) يعيش الترقّب والوجل .. إنّه يعرف أنّ هناك تشوّهاً خلقياً فيها ولكنّه لا يعرف كيف .. ضرب عشرات الاحتمالات في رأسه وتخيّل مع نفسه آلاف الصّور .. و (منيرة) كانت تعيش تأنيب الضّمير .. لقد رأت الأوراق الرّسمية الّتي تشير كلّها إلى أنّ هناك عيباً في أعضائها التناسليّة .. تأنيب الضّمير كان يأتيها لأنّها تعرف أنّ (نزار) سيكون زوجها بدون أن يدخل بها ! يا سلام على هذه العبارة المتناقضة ! زواج بدون زواج !

المهمّ أنّ اللحظة الحاسمة جاءت ..

فأوّل ما لاحظه (نزار) أنّ صدرها صغير !

ثمّ كان نظره إلى بقيّة أعضائها .. لاحظ أنّ التشوّه غير عادي .. والحقيقة أنّ منظر التشوّه غريب جداً .. أعضاؤها التناسلية تجمع ما بين شكل الأعضاء الأنثوية والذكريّة ـ في آنٍ واحد ـ !

ضحك في سرّه ..

الحقيقة أنّه لم يهتمّ .. كان سعيداً بهذه اللّحظة فقط .. يكفيه أنّه بجانبها .. إنّه بجانب (منيرة) .. مع (منيرة) .. يا ألله ما أجمل الحياة !

ولكن :

لم يهتمّ (نزار) بما رأى ..

.. لم يكن مهتماً بشيء !

***

مرّ أسبوعان ..

من حسن حظّهما أنّه اشترى السيّارة .. صارا يلتقيان في تلك الشقّة ..

كان هو يأتي بسيّارته وكانت تأتي بسيّارتها .. كان تنسيق اللّقاء عن طريق الهاتف طبعاً ..

في هذا الوقت كان أهلها وخصوصاً (أمّ أحمد) منهم قد أكلهم الشكّ بأنّ هناك أمراً ليس طبيعيّاً في حياتها .. إنّ (منيرة) لم تعد تحكي عن (نزار) أبداً .. إنّ (منيرة) تقبّلت موضوع رفضهم إيّاه بكلّ رضىً وقبول .. قبول إلى درجة تثير الشكّ والرّيبة حقّاً !

هنا شعرت (أمّ أحمد) أنّ هناك أمراً خفيّاً يدور بين (نزار) و (منيرة) .. فاستعانت بواحد من أصحاب السّوابق الخطيرة وطلبت منه أن يجمع بعض أصدقائه الّذين من نفس فصيلته .. وأن يكوّن عصابة !

نعم ! استأجرت عصابة .. وطلبت منهم أن يوقفوا (نزاراً) عند حدّه بعد أن يضربوه ضرباً مبرحاً .. وبعد أن يهدّدوه أن يبتعد عن حياة (منيرة) إلى الأبد !

أعطتهم نقوداً وأجزلت العطاء بكرم حاتمي .. وطلبت منهم أن يرتبوا أمر اللقاء معه بطريقة خبيثة لأنّه قويّ وحذر كما وَصَفَتْهُ لهم !

الجميل في الأمر أنّ رئيس العصابة اتّصل بـ (نزار) وأخبره بكلّ ما طلبت (أمّ أحمد) منه ومن عصابته ! طبعاً رئيس العصابة فعل هذا لأنّه كان يعرف (نزار) في السّجن ورآه أكثر من مرّة ! وكان يعلم كم كان محتالاً وشرّيراً .. لكنّه كان يعلم أيضاً أنّه تاب ورجع إلى الطّريق المستقيم ..

نعم ! حتّى أهل الشرّ ـ هؤلاء ـ يشعرون بالسّعادة إذا علموا أنّ واحداً منهم ترك حياتهم التعيسة البالية وبنى لنفسه حياة جديدة خضراء !

المهمّ أنّه أخبر (نزاراً) أنّه يحترمه .. ووصفه بالأستاذ ، مما جعل (نزار) يضحك ويتذكّر تلك الأيّام الخوالي ! ثمّ أخبره أن يقوم بإخبار الجميع أنّ هناك عصابة ضربته ..

هذه ستكون صفقة عادلة : (أمّ أحمد) ستعرف أنّه ضُرب وهو لم يُمسّ أصلاً وبهذا ستشعر هي بالارتياح ! العصابة لم يضربوا أحداً ونالوا مبالغ مالية كبيرة ! و (نزار) لم تصبه ضربة واحدة !

.. صفقة ربح منها الأطراف الثّلاثة !

* * *

ثمّ مرّت ثلاثة شهور ..

ثلاثة شهور كاملة ولم يكن أحد من أهل (أمّ أحمد) يدري شيئاً .. لقد اطمأنّوا أنّ (نزار) قد ابتعد بعد (العلقة) !

أهل (نزار) كانوا يعيشون بشكل عادي وهناك زيارات يقوم بها (نزار)

و (منيرة) للجميع .. رغم هذا لم تكن (منى) زوجته تعلم شيئاً .. كان الأمر بالنسبة للعائلة كلّها مدرجاً تحت بند (سرّي للغاية) وكأنّه مهمّة للمخابرات!

بالنسبة لـ (منيرة) و (نزار) فقد كانت (منيرة) في غاية السّعادة .. أخيراً أحسّت بمعنى الحبّ الحقيقي .. أحسّت بمعنى أن يكون هناك شخص يشاركها حياتها .. شخص جاء بعد أربعين عاماً من الوحدة القاتلة !

(نزار) كان سعيداً أيضاً .. كان سعيداً من جميع النّواحي وهو معها .. لكنّ منظر أعضائها التناسليّة الغريبة المتناقضة لم يكن يغيب عن باله أبداً حتى وهو بين أهله أو في عمله ..

أحياناً كان يسألها (نزار) عن أعضائها التناسليّة تلك .. وكانت تجيبه نفس الجواب الّذي لطالما سمعته من والدتها المرحومة ومن شقيقتها (أمّ أحمد) :

ـ المسألة ليست إلاّ تشوّهات خلقيّة ليس لها أيّ علاج !

بعد هذا الأمر جاء يوم وجلسا فيه سويّاً في تلك الشقّة ..

قالت له :

ـ هل أنت مرتاح في المشغل ؟!

أجابها بعد أن تنهّد :

ـ لست مرتاحاً طبعاً .. إنّه صغير وسأحاول أن أنتقل إلى واحد أكبر قريباً إن شاء الله !

ضحكت (منيرة) .. رمقته بنظرة طويلة ثمّ مالت على وجنته وقبّلتها .. دخلت إلى غرفة النّوم وعادت ومعها مبلغ مالي .. ناولته المبلغ قائلة :

ـ أرجو أن تنتقل إلى مشغل جديد كبير غداً ! انسَ أمر هذا الكوخ الّذي تعمل فيه ! هذا المبلغ سيكفي وزيادة ! إنّه ألفي دينار !

هكذا اكتملت سعادة (نزار) تماماً ..

بهذا المبلغ سيكون قد انتهى من كلّ ما عليه .. سيكون قد أنهى سداد ديونه الّتي عليه في المحكمة للشرطة .. واشترى سيّارة أيضاً .. وفتح مشغلاً جديداً كبيراً يعمل فيه على راحته وفيه كلّ ما يحتاج من آلات !

سبحان الله !

وفّقهما الله ليعرفا بعضهما بعد أن جعلهما يحلمان بأنّهما سيقابلان بعضهما.. هي وجدت السّعادة وشعرت بمعناها وهي تعيش معه .. وهو انتهى من كلّ الأمور الماليّة والعمليّة الّتي كانت تشغله وتشغل فكره !

كان (نزار) ـ في أكثر من لقاء ـ يعيد الكلام لـ (سنيرة) حول أعضائها التناسليّة وأنّ الأمر لا يطمئنه ..قالت له :

ـ ماذا تقصد ؟!

لم يكن يجرؤ أن يخبرها أنّ أعضاءَها التناسليّة تحمل خليطاً من الأعضاء الأنثويّة والذّكريّة بشكل لم يتخيّله أبداً في حياته .. لكنّه قرّر أن يغامر وأن يقول لها هذه النّقطة ..

وتماماً كما كان يتوقّع فقد ضحكت .. ضحكت ضحكة صافية وقالت :

ـ ما الذي تقوله يا رجل ؟! الذي يؤسفني أنّك لا تصدّقني ولا تصدّق هاتين العينين اللتين قامتا بقراءة الأوراق الرسمية الّتي تحكي عن التشوّهات!

لم يجبها ، بل بقي صامتاً ينظر في وجهها ..

ارتسم تعبير يشي بالحزن على صفحة عينيها عندما صمت ونظر لها ..

تابعت الكلام :

ـ .. (نزار) ! إذا لم تكن سعيداً معي أو أنّك تشعر بالضّيق فاذهب وطلّقني.. افصل عقد الزّواج ولن أغضب .. أشعر أنّك لست سعيداً !

اقترب (نزار) منها وربّت على كتفيها ونظر بعينيها مباشرة قائلاً :

ـ المسألة ليست هكذا يا (منيرة) .. الأمر أنّني مستغرب جدًّا من هذا الوضع ، وأرغب بالتأكّد أكثر وأكثر من طبيعة هذه التشوّهات ـ من أجل راحتنا ـ ..

ـ وماذا عن الأوراق الّتي رأيتها بأمّ عيني؟!

ضحك وقال :

ـ أنا أصدّقك .. لكنّي لست أصدّق الأوراق!

صمتت قليلاً ثمّ قالت :

ـ وما رأيك إذن ؟!

قال :

ـ ليس عندي أيّ رأي الآن .. أرغب بالتأكّد من طبيعة هذا التشوّه فيما لو كان له علاج !

ـ وكيف هذا ؟!

ابتسم في وجهها ابتسامة جامدة ، ثمّ نهض ملتقطاً سترته من المِشْجَب ،

وغادر المكان وعيناه تقولان : (اتركي هذا الأمر عليّ) !

* * *

اتّجه (نزار) إلى بيت أهله وجلس معهم ثمّ خرج مع والده بالسيّارة واتّجها إلى (مول) كبير ..

دخلاه وصعدا إلى طابق المطاعم .. طلبا وجبتين خفيفتين وبدآ بالكلام..

أخبر (نزار) والده بكلّ شيء .. أخبره بالتفاصيل الكاملة المملّة .. لم يترك أمراً صغيراً ولو تافهاً إلاّ وقاله له ..

واستمع الوالد ملياً .. وكان خلال استماعه يسأله أحياناً عن بعض الأمور لمزيدٍ من التّوضيح ..

بعد أن أنهى (نزار) الكلام ؛ اتّصل والده بصديق له يعمل طبيباً شهيراً مختصاً بالأمور النّسائيّة .. إنّه الدّكتور (عاصم سفيان) وهو من أكثر الأطبّاء في البلد خبرة ..

أخبره بالأمر كما قاله له (نزار) فقال الدّكتور :

ـ سأنتظرهما فابعثهما لي غداً .. وبعد أن أقوم بِفحصها سأخبرهما بالنّتيجة..

في البداية رفضت (منيرة) الذّهاب .. أخبرت (نزار) أنّها فحصت ألف مرّة في الماضي ولا تريد تكرار شعور لحظة الإحراج المقيتة تلك .. كما أنّ أشقّاءَها وشقيقاتها والجميع والأوراق تؤكّد أنّ الأمر مجرّد تشوّهات وكفى.. هل سيكون الأمر أكبر من هذا ؟!!

كما أنّ الأمر كان ـ كما أفهموها ـ أنّها ستبقى هكذا حتّى الأبد .. بدون علاج لأنّه لا يوجد علاج لهذا النّوع من التشوّه !

قال لها (نزار) :

ـ لن نخسر شيئاً .. ربّما كان هناك علاج ظهر حديثاً في دنيا العلم ولم يسمع به أحد من أهلك ، لأنّهم نسوا أمرك ، واطمأنّوا أنّه لن يفتح أحد تلك الصّفحة من جديد ..

قامت (منيرة) بطاعته لأنّها تحبّه .. واتّجهت في اليوم التّالي إلى عيادة الدّكتور (عاصم) بدون (نزار) ..

دخلت عند الدّكتور ، وذكرت له اسمها ووضعها ..

استقبلها وأجلسها ثمّ قام بفحصها ..

فحصها فحصاً نسائيّاً كاملاً ..

قال لها :

ـ لحظة ! هل قلتِ لي أنّك متزوّجة ؟!

كانت نظرة الدّكتور غريبة .. فقالت :

ـ نعم .. تزوّجت بالسرّ لأنّ أهلي كانوا دوماً يرفضون تزويجي .. وأنا قضيتُ عمري وحيدة !

صمت الدّكتور قليلاً ثمّ ألقى القنبلة بهدوء قوي :

ـ أنتِ رجل !

ـ ماذا ؟!

انطلقت منها الكلمة في جنون ..

انطلقت منها كالرّصاصة ..

لم تكن تتوقّع في حياتها أن تسمع هذه الكلمة !!

أردف الدّكتور (عاصم) :

ـ .. أنتِ رجل ! خلال عمليّة صغيرة أستطيع أن أقوم بتحويلك إلى رجل كامل ! من أخفى عنك هذه الحقيقة ؟!

ـ منذ طفولتي وأنا أعلم أنّي بدون علاج .. هكذا أفهمني الجميع وأخبروني .. فهمت الأمر أنّه مجرّد تشوّهات خلقيّة فقط !

قال الدّكتور :

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! كيف استطاع أهلك أن يفعلوا هذا بك ؟! كان المفروض أن تتمّ هذه العمليّة الجراحيّة لك منذ ثلاثين عاماً وأنتِ صغيرة !

ثمّ أخرج هاتفه وقال لها مردفاً بعد أن أخرج نفساً عميقاً من صدره :

ـ كم رقم زوجك ؟!

ـ لماذا ؟!

ـ أعطني رقم زوجك فحسب !

أخرجت هاتفها وأخبرته بالرّقم .. فاتّصل على (نزار) على الفور :

ـ السيّد (نزار) ؟!

ـ نعم أنا !

ـ أنا الدّكتور (عاصم سفيان) ولقد فحصت زوجتك .. اذهب الآن إلى المحكمة وطلّقها بدون إبطاء .. أنت متزوّج من رجل !!

***

الفصل السادس

وكانت الصّدمة !

مشاعر غريبة اختلطت في (نزار) حتّى أنّه شعر وكأنّه بحرٌ هائج ..

لكنّه في النّهاية شعر بشيء من مشاعر الارتياح ..

ولكن لماذا ؟!

لأنّه غير سعيد بهذه الزّواج الّذي ينفّره عندما يقترب من زوجته ..

هذا لم يمنعه أيضاً مِن مشاعر الألم ؛ لأنّه سيضطر إلى تطليقها بعد أن أحبّها وعاش معها وبقربها ..

كذلك بمشاعر الحزن عليها لأنّها ستعود إلى حياتها الأولى وحيدة دون زواج .. مشاعر كثيرة مختلطة احتار جدًّا في تفسيرها وتوضيحها !

بالنسبة لـ (منيرة) فقد كان الأمر مضطرباً عليها جداً ..

ر .. جـ .. ـل !

رجل ؟!

هي .. رجل ؟!

هي ؟!

انتابها شعور عارم بالصّدمة .. كما غمرتها مشاعر الارتياح المباغتة أيضاً.. أخيراً استراحت وعرفت سر شخصيتها ، وحقيقة وضعها .. عرفت ما هي!

كما انتابتها مشاعر غاضبة بصورة غير طبيعيّة .. لَمَ لَمْ يخبرها أهلها بأنّ هذا هو وضعها ؟!

في هذه اللحظات تذكر (نزار) حلمه ..

تذكرت (منيرة) حلمها ..

جاء خاطر مفاجئ في باله بأنّ الله قد جمعهما سويّاً لغاية عظمى :

له هو حتى يخرج من ضائقته المالية عن طريقها ..

ولها هي حتّى تكشف سرّها بنفسها !

* * *

بعد أن قال الدّكتور (عاصم) هذه الجملة ، وبعد أن سكت (نزار) قليلاً ليمتصّ أثر الصّدمة قال :

ـ ماذا تقول يا دكتور ؟!

ـ كما سمعت يا سيّد (نزار) ! اذهب وطلّقها ثمّ اذهب إلى أهلها وأخبرهم بالأمر !

تنهّد (نزار) تنهيدة عميقة تحمل ألف معنى ، وقال :

ـ حسناً يا دَكتور !

* * *

عند عيادة الدّكتور (عاصم) نظر الدّكتور إلى (منيرة) الّتي استرخت في مقعدها ، وقد ترقرقت الدّموع في عينيها وشرد فكرها في البعيد ..

ـ سيّدة (منيرة) ؟!

قالها الدّكتور ، فالتفتت إليه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة جافّة مريرة :

ـ سيّدة ؟!!

نظر لها وتجاهل السؤال والمغزى من السؤال وقال :

ـ سأخبرك أمراً وأرجو أن تفكّري فيه مليّاً !

عدّلت من جلستها وقالت :

ـ تفضّل !

نهض من مقعده ، شبك يديه وراء ظهره واتّجه إلى النّافذة ووقف أمامها، ثمّ التفت إليها قائلاً بلهجة حازمة قال :

ـ اسمعي يا سيّدة (منيرة) .. أمامك الآن طريق من طريقين وأنت حرّة الآن في الاختيار بعد أن عرفت السر الذي خبأه أهلك عنك كلّ هذا الوقت: باختصار أنت رجل بنسبة سبعين في المائة .. التشوّه الخلقي الّذي أصابك لم أر مثله من قبل ! والحقّ أنّه أثار دهشتي جدًّا .. أعضاؤك التناسلية ثلاثة أرباعها ذكرية والربع الأخير أنثوي .. الأمر غريب ويثير استغراب أي طبيب أو عالم بيولوجي .. الفكرة المهمّة ها هنا أنّ عائلتك مجرمة بحقّك .. لو أنّك دخلت المستشفى لإجراء عمليّة إكمال الرّبع الذكري المتبقّي منذ طفولتك لأصبحت رجلاً منذ زمن بعيد ومتزوّجة وعندكِ أطفال.. لكنّهم لم يخبروك ..

ثم التقط نفساً عميقاً والتفت إليها مكملاً :

ـ .. الخياران اللّذان سأضعك أمامهما الآن هما كالتالي .. الأوّل : أن تستمرّي بحياتك مع أهلك بنفس شخصيّتك دون أن يدري أحد أنّك رجل..

ثم نظر إليها وإلى ملامحها نظرة طبيّة وأردف سريعاً :

ـ .. الخيار الثّاني ربّما يكون صعباً بالنّسبة لك ولأهلك لكنّني أستحسنه.. وهو : أن أجري عليك عمليّة تحويلك الكاملة إلى رجل ! العمليّة لن تكلّفك أكثر من أربعة آلاف دينار وستصبحين رجلاً في غضون خمس ساعات فقط! الصعوبة ليس هنا .. الصّعوبة فيما وراء العمليّة ! سيكون عليك أن تغادري منطقتك وأهلك وكلّ من يعرفك حتّى الأبد .. ستعيشين بهويّة جديدة ورخصة قيادة وجواز سفر جديد .. كلّ هذا سيتغيّر ببساطة من (دائرة الأحوال المدنيّة) بناءً على الأوراق الّتي سأعطيكِ إيّاها ..

ثم قلب كفيه واستطرد :

ـ .. طبعاً ليس من المنطق أن يعرف جميع سكان المنطقة أنّ (منيرة) الّتي كانت تجلس مع بناتهم وشقيقاتهم وزوجاتهم كانت رجلاً طوال هذه السّنين! لن يصدّق أحد كما أن الفضيحة ستكون كبيرة جداً ! لهذا فالحلّ أن يعرف الجميع أنّك وجدت عملاً في إحدى دول (أوروبا) أو (الخليج) ! بينما أنت في نفس المدينة لكن بشكل وهويّة مختلفتين تماماً !

قال هذا ثم التقط نفساً عميقاً .. يا إلهي ! لقد شعر أنّ لسانه (أوتوستراد) حقيقي !

ثمّ سألها وعيناه شاردتان :

ـ .. هـه ! ما رأيك ؟!

نظرت إليه نظرة غامضة .. نظرت إلى سقف الغرفة وظهرت على وجهها علامات التفكير العميق المتأمل .. ثم قالت وهي تستخرج كلماتها كأنّها من بئر :

ـ موافقة يا دكتور ! قم بتجهيز الأوراق الرسميّة كاملة وسأكون عندك غداً صباحاً حتّى نجري العمليّة !

ثمّ التقطت حقيبتها من فوق الطّاولة .. ألقت على الدّكتور السّلام .. ثمّ اندفعت خارج العيادة دون أيّ كلمة زائدة على :

ـ شكراً !

* * *

في هذه الأثناء كان (نزار) قد اتّجه من فوره إلى المحكمة ، وطلّق (منيرة) بالأوراق الرسميّة للسّبب الّذي أخبره به الدّكتور(عاصم) !

* * *

بعد خروجها من عيادة الدّكتور (عاصم) اتّجهت (منيرة) بأقصى سرعتها والغضب يتفجّر ـ كالبراكين ـ من ملامحها وجسدها كلّه إلى منـزل (أمّ أحمد)..

وهناك قامت الثّورة !

ثورة عنيفة .. تمرّد ضخم عملاق .. عاصفة هوجاء لم يتوقّع أيّ أحد من أشقّاء (منيرة) أن يصدر من (منيرة) الوديعة الهادئة ذات يوم ..

ولكن ؛ أيّ هدوء ؟!

إنّ ما يتحكّم بـ (منيرة) الآن هو ذلك الشّعور الّذي أحسّت به فجأة يسري في كيانها وأعصابها .. شعور الصّدمة والإحساس بالخدعة المحبوكة بمهارة ذئبيّة ثعلبيّة طوال هذه السّنين الطّويلة !

ثورة .. وتمرّد .. وصراخ .. وصياح .. ودموع غزيرة .. وشهقات .. وكلّ ما لم يتوقّعه أحد منها !

كانت هناك (أمّ أحمد) وشقيقتاها مع شقيقها الوحيد الموجود هنا .. اتّصلت بهم (منيرة) وأخبرتهم بأنّها تريدهم لاجتماع عاجل بخصوص أمر حاسم من طراز : (حياة أو موت) !

أخبرتهم (منيرة) هناك بالقصّة كاملة .. أخبرتهم عن (نزار) وعن زواجها السرّي منه وعن عثورها على السّعادة ـ ولو كانت قليلة ومحدودة!ـ معه خلال الأشهر الثلاثة الماضية .. أخبرتهم عن شكوكه وعن حسم الشّكوك عند الدّكتور (عاصم) .. أخبرتهم عن أنّه طلّقها قبل قليل في المحكمة .. أخبرتهم بكلّ شيء ممكن .. ولم تنس أن تخبرهم في النّهاية أنّها ستتحوّل إلى رجل غداً صباحاً !

هنا انقلبت الثّورة عليها .. واتّهمها شقيقها بالجنون ، وكاد يضربها لولا أنّه رأى تلك النّظرة المتحدّية العنيفة في عينيها الحمراوين ..

صرخت بوجههم توبّخهم ، ويطوف في عقلها كم هم أنذال .. كم هم أوغاد .. كم أن الطّمع يكاد يأكلهم بل قد أكلهم وشبع وأصيب بالتّخمة !

ـ كلّ هذا لأجل نقودي ؟! كلّ هذا لأجل المنـزل والسيّارة ؟! لعنة الله

على كلّ هذه الأموال الّتي جعلتكم تحرمونني من السّعادة والحياة الطبيعيّة مثل أيّ إنسان !

طبعاً بدأ التّبرير .. والتّبرير كان يصدر أكثر ما كان من (أمّ أحمد) .. حاولت تبرير الموقف كما فسّره الدّكتور (عاصم) بأنّ الأمر سيكون فضيحة.. وبأنّهم لو أجروا لها هذه العمليّة فإنّ سيرتهم سوف تصبح على كلّ لسان .. ولن يستحمل أيّ رجل أو أيّ امرأة أن تقابلها حتّى الأبد !

هذه الجملة جعلتها تستشيط غضباً أكثر من قبل .. كانت غاضبة جداً .. غاضبة حقّاً ..

إنّ (الأدرينالين) يعمل عمله في عروقها بشكل ممتاز جداً !

قالت ، أو صرخت ـ بالأحرى ـ :

ـ إذا كان الأمر متعلّقاً بأثر هذا على النّاس فأنا سأخبرهم .. وما المشكلة في أنّني كنت مخدوعة من والدتي وشقيقتي الكبيرة ثمّ اكتشفت الخدعة ؟! ما المشكلة ؟! هذا أمر الله ، وليس فيه أيّ فضيحة كما أنّ هذه حياتي الخاصّة .. كنت امرأة ثمّ اكتشفت أنّني رجل ! من سيحاسبني على قدري المحتوم هذا يا عالم ؟!!

ثم نظرت في وجوههم جميعاً .. يا إلهي من هذا الغضب ! وأكملت :

ـ .. طيلة عمري وأنا أسأل أسئلة بيني وبين نفسي : لماذا خلقني الله هكذا؟! لماذا يريد الله أن يحرمني من الأسرة ؟! لماذا أنا وحدي من دون كلّ النّاس ؟! ولم أكن أعلم أنّكم كلّكم تعلمون أنّني بعمليّة جراحية صغيرة ستتغيّر كلّ حياتي للأفضل .. لو أنّكم أجريتموها لي لكنت الآن متزوّجة وعندي زوجة وأولاد !

نطقتها ثمّ ضحكت .. ضحكت في مرارة .. شعرت بمدى غرابة الشّطر الأخير من هذه الجملة .. (متزوّجة وعندي زوجة وأولاد) !

يا للتّناقض الفظيع !

هنا انحلّت عقدة لسان (أمّ أحمد) لتقول :

ـ كلّ السّبب من ذلك الوغد (نزار) ! هو الّذي زرع برأسك هذه الأفكار الشّيطانيّة ! إنّه طمّاع وكلّ ما فعله وقاله لأنّه يريد نقودك !

صرخت (منيرة) في جنون :

ـ اخرسي ! (نزار) هو النّور الّذي بعثه الله لي حتّى أخرج من الظّلام الّذي وضعتموني أنتم فيه ! أنتم الطّامعون فيّ وليس هو ! لقد أحبّني الرّجل وكان يريد علاقة وطيدة أبديّة لولا أنّ الله كشف له ما فعلتم بي ! أسأل الله ألاّ يسامحك .. ولكن سامحك الله يا أمي ! كنت أتمنّى لو استطعت أن أدعو عليها لكنّها في قبرها .. فليغفر لها الله ما أخطأتْ في حقّي !

ثم هزّت سبّابتها في قوّة واستطردت :

ـ .. المهمّ هنا أنّ (نزار) أخرجني من حالتي هذه وجعلني أكتشف كم أنّ عائلتي كانت كاذبة معي .. كل هذا لأنّكم خائفون من الفضيحة ؟! يا سلام! الفضيحة ستكون لي وحدي أصلاً ـ هذا لو أنّ هناك فضيحة ! ـ ولن يمسّكم أيّ شيء ! معي الكثير من النّقود وكان بإمكانكم أن تخبروني بهذا الأمر منذ زمن بعيد .. والخطوات ستكون نفس الخطوات الّتي سأفعلها منذ الغد إن شاء الله : سأجري العمليّة وآخذ نقودي وأغيّر أوراقي الرسميّة وأجد عملاً، وسيعرف جميع سكّان المنطقة أنّ (منيرة) وجدت عملاً في الخارج .. كان من

الممكن أن أعيش حياتي بصورة طبيعية لولا طمعكم الزائد .. ولولا رغبتكم ـ لطمعكم ـ بألاّ أتزوّج !

في هذه الأثناء كان شقيقها يتكلّم مع (نزار) بالهاتف :

ـ أنت الّذي لعبت في رأسها ووسوست لها ! أنت الّذي غيّرتها وجعلتها تكرهنا جميعاً !

وكان جواب (نزار) حاسماً وصارماً بصورة لم يعهدها في نفسه :

ـ بكلّ اختصار ووضوح: أنتم خدعتم الفتاة طوال هذه السّنين وحرمتموها من السّعادة .. فأتيت أنا بتوفيق إلهي لأخرجها من خداعكم لها وأرشدها لما تفعل ..

بنفس الوقت كان شقيقا (منيرة) اللّذان في (الإمارات) قد علما بالأمر وبالثّورة الّتي قامت بها أختهم .. هنا كان ردّ الشّقيقين على (أمّ أحمد) في الهاتف ـ عاقلاً ـ :

ـ فلْتجر العمليّة ولْيوفّقها الله ! كان ينبغي أن يحصل هذا الأمر منذ الماضي البعيد !

إلى هنا انتهى دور (منيرة) عند أهلها .. واندفعت خارج المنـزل وقد صفقت الباب وراءها في عنف !

* * *

لم تستطع (منيرة) أن تتّصل بـ (نزار) لتخبره أن يلتقي بها .. هناك رهبة غير عاديّة من أن تراه الآن .. بجلبابها وحجابها وهي تعرف أنّها رجل ..

وهو يعرف أنّها رجل !

هِي .. رجل !

كلّ ما في الأمر أنّها اتّصلت معه وأخبرته عنوان عيادة الدّكتور (عاصم).. طالبة منه أن يأخذ من الدّكتور الأوراق الّتي تفيد بأنّها رجل .. وبأنّه ينبغي من الصّباح أن يذهب إلى (دائرة الأحوال المدنيّة) حتّى يغيّر جميع الأوراق الثبوتيّة الّتي باسمها الأنثويّ إلى اسم رجل آخر !

هنا سألها (نزار) :

ـ وما اسمك الجديد ؟!

سكتت قليلاً .. ثم وجدت أنّ أفضل اسم هو الاسم الّذي ظهر فجأة أمام رأسها :

ـ أعتقد أنّي أفضلّ اسم (منير) !

هنا ..

.. كانت هذه بداية الحياة الجديدة لـ (منيرة) ..

عفواً .. (منير) !

* * *

الفصل السابع

جاء اليوم التالي ..

أهل (منيرة) في المنـزل والكل مجتمع .. جاء أشقاؤها من (الإمارات) والكل بانتظار خروجها من المستشفى بعد العمليّة ..

الدّكتور (عاصم) والطّاقم الجراحي على أهبة الاستعداد الكامل في المستشفى .. والجميع بانتظار أن تنهي السيّدة (منيرة) تلك المكالمة الضرورية..

مع من تلك المكالمة ؟!

طبعاً هو (نزار) !

لم يستطع أن يراها قبل العمليّة .. ولم تطلب هي منه ذلك أيضاً .. حاجز الرّهبة كان أقوى منهما الاثنين ..

لكنّهما كانا يتكلّمان بالهاتف .. تكلّما نصف ساعة كاملة وأوصاها أن تهتمّ بنفسها وأنّ هذا هو قدرها وأنّ عليها أن تصبر وتحتسب .. أصلاً الحياة القادمة ستكون أفضل ـ ولا شكّ ـ من حياتها الآن !

واساها كثيراً .. حاول التخفيف عليها قدر المستطاع .. حيث بدا وكأنّه يعمل في (جمعيّة رفع المعنويّات) !

بعدها تناول الدّكتور (عاصم) الهاتف منها .. وأوصاه (نزار) ألف مرّة أن يهتمّ بها مع التّكرار ـ آلاف المرّات ـ لتلك الجملة المستهلكة ـ جدًّا ـ : (دير بالك عليها) !

الخلاصة أنّ المكالمة انتهت .. ليذهب بعدها (نزار) مباشرة إلى (دائرة الأحوال المدنيّة) ويبدأ في الإجراءات اللاّزمة لتغيير كلّ الأوراق ..

.. أمّا في المستشفى فقد بدأت العمليّة !

***

في المنـزل : كان الكلّ متوتّراً ..

في الدّائرة : (نزار) ينتقل من مكتب إلى مكتب وهو متوتّر أيضاً ..

في المستشفى : العمل دائب ، والعمليّة مستمرّة .. ومرّ الوقت ..

ساعة ..

ثلاث ساعات ..

سبع ساعات ..

صارت السّاعة الرّابعة عصراً ولم يتّصل أحد على رقم منـزل (أمّ أحمد)..

أقفلت الدّوائر الحكوميّة ورجع (نزار) إلى منـزله ولم يتّصل به أحد !

***

في السّاعة الخامسة جاء الاتّصال ..

جاء على منـزل (أمّ أحمد) أوّلاً .. رفعت السمّاعة لتجد أنّه الدّكتور (عاصم) يقول لها :

ـ مبروك .. نجحت العمليّة بحمد الله رغم أنّها أخذت منّا وقتاً طويلاً أكثر من اللاّزم .. لكنّنا اضطررنا إلى هذا .. حالتها غريبة ونسبة وجودها قليلة للغاية ولكنّنا نجحنا بها والحمد لله !

* * *

تماماً كما جاء الاتّصال على (نزار) ..

ارتفع رنين هاتفه المحمول .. فطارت علبة جهاز التحكّم بالتّلفاز من يده.. تسارعت دقّات قلبه .. انتفخت عروقه فجأة واخضرّت .. أمسك الهاتف وضغط الزرّ الأخضر :

ـ آلو !

ـ (نزار) ؟!

كان هذا هو الدّكتور (عاصم) ..

ـ نعم أنا (نزار) يا دكتور !

أخبره الدّكتور بنفس ما قال لـ (أمّ أحمد) ثمّ أكمل :

ـ .. والحقيقة أنّها لا تزال في غيبوبة التخدير حتّى الآن .. لكن لا تقلق.. غيبوبتها ـ أيضاً ـ بسبب العقاقير الكثيرة الّتي تمّ حقنها بها .. فالعمليّة لم تكن لتغيير شكل الأعضاء التّناسليّة فقط .. بل كان معنا جرّاح في الجينات أيضاً !

لم يفهم (نزار) ماهيّة الجينات فسأل :

ـ وماذا يعني هذا ؟!

ضحك الدّكتور مجيباً :

ـ أي أنّها ذكر كامل الآن ! رجل بكافّة الصّفات الموجودة عندك ! شعرها سيصبح قصيراً من الآن وصاعداً كما أنّ شعر الوجه سيبدأ بالنموّ وسيصغر حجم الصّدر .. إلى آخر هذه الأمور !

ـ ومتى سأراها ؟!

قال الدّكتور بعد أن تنهّد :

ـ لقد سألتني (أمّ أحمد) نفس السّؤال وسأجيبك بنفس ما أجبتها : إنّها الآن في غيبوبة وتحتاج يومين على الأقلّ كفترة (نقاهة) .. لا يفكّر أيّ أحد منكم أن يزورها بالمستشفى فالأمر محرج جدًّا وفي غاية الصّعوبة .. لا تسألوا عنها فهي بعد يومين ستخرج .. أقصد : فهو بعد يومين سيخرج .. وهو من سيتّصل معكم !

قال (نزار) :

ـ هو من ؟!

ـ هو ! (منير) ! (منيرة) !

ـ هو ؟!

لم يستسغ (نزار) أن (منيرة) ستصبح (هو) ! لكنّ هذا (هو) قدرها ، وهذا (هو) الواقع !

في هذه اللّحظة تذكّر (نزار) كلمة قالها وكان يكرّرها دائماً بين أصدقائه:

(أبشع ما في الواقع أنّه حقيقي .. وأبشع ما في الحقيقة أنّها واقعيّة) !

* * *

ومرّ يومان ..

* * *

(نزار) في المشغل الجديد ، بيده هاتفه المحمول الجديد .. وعقله مشغول بـ (منيرة) !

بل .. (منير) !

تُرى كيف شكلها الآن ؟!

كيف نفسيّتها ؟!

كيف حال أهلها ؟!

فجأة ..

رنّ هاتفه !

رفعه ونظر إلى شاشته ليرى العبارة الّتي كان ينتظرها على أحرّ من الجمر:

(منيرة يتّصل بك) !

شعر أنّ صوتها أخشن قليلاً من قبل :

ـ مرحباً يا (نزار) !

قال في لهفة :

ـ أهلاً (منيرة) !

ضحكت وقالت بجديّة :

ـ اسمي (منير) !

قال في سرعة :

ـ كيف حالك ؟! ما أحوالك ؟! ما أخبارك ؟! كيف أنت بعد العملية ؟! طمئنيني عنك ؟! أخـ ..

قاطعته فجأة :

ـ أين أنت ؟!

ـ في المشغل !

قالت :

ـ تعال ! أنا في (مكّة مول) في طابق المطاعم .. وأريد رؤيتك !

ـ حالاً !

قالها واتّجه من فوره إلى المنـزل .. أخذ حماماً سريعاً في دقيقة ، وارتدى بذلة رسميّة جديدة واتّجه إلى (المول) ..

وصل هناك وصعد بأقصى سرعته إلى طابق المطاعم ..

وكانت تجلس هي هناك ..

عفواً .. كان يجلس هناك ..

(منيرة) !

أو (منير) !

هناك مطعم يقدم الوجبات الخفيفة ولكنّه مختصّ أيضاً بالعصائر والقهوة والمشروبات السّاخنة و (الأراجيل) .. وكانت هي / هو فيه .. وقد حجزت طاولة عند النافذة !

عرفها على الفور رغم أنّها كانت تدير وجهها .. لون هذا الشّعر وعرض هذه الأكتاف هو لـ (منيرة) .. روحه قادته إليها قبل أن تقوده قدماه !

اتّجه وجلس على الطّاولة مفرقعاً بأصابعه وهو يبتسم .. فأدارت وجهها وجسدها إليه ..

(منير) !

رجل يرتدي قميصاً أبيض اللّون على بنطال قماشي أسود ، وهناك ربطة عنق مخطّطة بخطوط سوداء وبيضاء جانبيّة ، وحذاء أسود لامع !

شعر مصفّف بأناقة .. شعر قصير مثل شعر أيّ رجل .. وهناك نظّارة فوق العينين بدون عدسات طبيّة .. مجرّد زجاج لا يضرّ ولا ينفع ! وليس هناك أيّ شعر على الوجه !

النّاظر إليها لا يعرف أنّها (منيرة) إلاّ في حالة واحدة : أن ينظر لها ويقول أنّ (منيرة) تشبه هذا الرّجل جداً حتّى أنّهما يكادان يتطابقان !

كانت لحظة غير عاديّة بين (نزار) و (منيرة) .. صافحها ، وتعانَقا تعانق الرّجال عندما يغيب أحدهما عن الآخر !

ثم بدآ يتحدّثان ..

أخبرته أنّها أوصت شقيقها أن يحضر كلّ ملابسها وأشيائها من (الفيلا)

لأنها تريد إحراق كلّ ما له علاقة بهويّتها القديمة .. وستبيع (الفيلا) نفسها حتّى لا يبقى أيّ أثر لها ـ (منيرة) ـ عند أحد من النّاس !

بعدها أخبرته أنّ (مصطفى) ـ تاجر القرطاسيّة إيّاه ـ قد علم بالأمر .. هي اتّصلت به وأخبرته وقد تقبّل الموضوع بعد معاناة !

بالنّسبة لعائلتها فعلاقتها ممتازة مع إخوتها .. أمّا (أمّ أحمد) فـ (منيرة) قطعت العلاقة معها حتّى الأبد .. تقبّل أشقّاؤها أمر تحوّلها بعد أن رأوها بشكلها الجديد !

الجيران والنّاس والأقارب البعيدون عرفوا أنّها وجدت عملاً في واحدة من دول الخليج وستبقى هناك إلى أجل غير مسمّى.. كما قالت له بأنّها ستبيع المكتبة أيضاً !

إذاً ماذا ستعمل ؟!

شقيقها مدير لفرع كبير لواحدة من شركات السيّارات .. أخبرها أنّه سيقوم بتعيينها رئيسة لقسم المحاسبة في الفرع .. هي ستكون المسؤولة عن الجميع !

أخبرته أيضاً ألاّ ينسى سداد ديونه .. نعم هو سدّد ديونه كلّها ولكنّ (هنادي) تريد منه مائتي دينار ! أخبرته (منيرة) أنّها لم تنس وما زالت متذكّرة ما أخبرها به !

ثمّ قالت :

ـ في البداية ساعدتك ووعدتني بسداد النّقود .. في البداية أعطيتك ستّة آلاف .. ثمّ أربعة آلاف للسيّارة .. ثم ألفين للمشغل .. وألفين للشقّة وعقد الزّواج .. أي أنّني أريد منك أربعة عشر ألفاً تقريباً !

فتح فمه لينطق لكنّها سارعت بوضع أصبعها على فمه وهي تبتسم قائلة:

ـ لكنّي لا أريدهم ! سأعتبر أنّي قد خرجت في رحلة ترفيهيّة مع صديقي (نزار) لمدّة ثلاثة أشهر ورجعت ! وهذا المبلغ هو المبلغ الّذي قمنا بإنفاقه على أنفسنا في الرّحلة !

ثمّ مدّت يدها وقالت له :

ـ .. صافحني !

وصافحها ..

مصافحة غريبة بين الرّجل الّذي كانت علاقته معها مجرّد بائع مع زبونته..

ثمّ أصدقاء ..

ثمّ زوجين ..

زوجين مع وقف التّنفيذ ..

وبعدها أصدقاء ..

لكنّ الفرق أنّ الصّداقة الأولى كانت صداقة بين رجل وامرأة .. وقد صارت الآن صداقة بين رجل ورجل !

***

(نزار) و (منير) الآن أصدقاء .. يذهبان ويروحان ويجيئان معاً .. أحياناً ينشغل الواحد منهما بعمله قليلاً لكن لا بد أن يرى كلّ منهما الآخر ولو

للحظات معدودة كلّ يوم أو يومين ..

عزيزي ..

إذا كنت تمشي يوماً وسمعت رجلاً نحيلاً أخضر العينين أسود الشّعر ينادي صديقه ضخم الجثّة الّذي يرتدي نظّارة طبيّة بعبارة : (تعالي) أو (اذهبي) أو (أجيبيني) فلا تأخذ الأمر ببساطة .. فهما قد يكونان (نزار) و(منير) ..

.. لأنّ (نزار) لم يستطع أن ينادي (منيرة) بصيغة المذكّر حتّى هذه اللّحظة!!

***

حسن الحلبي

زوجة تختلف

هناك حكايات وحكايات..

منها ما يدخل من أذنك اليمنى ليخرج من اليسرى بسرعة..

منها ما تتذكره إذا أتى أحد بموضوع مشابه أمامك ..

منها ما يعلق بالذهن ولا يبارحه أبداً مهما حدث..

وعن النوع الثالث نتحدث ها هنا !

النوع الذي ستفكر فيه كثيراً حتى أن خلايا دماغك الرمادية ستستجديك طالبة الرحمة !!

حكاية الرّجل الذي تزوج سيدة بعد قصّة حبّ .. وهي لا تعرف عن نفسها أنّها رجـــل !!!

تلفاكس 5522544 6 00962 ص . ب 950252 . عمان 11195 الأردن

ISBN 978-9957-09-362-4 (ردمك)